
ألف ليلة وليلة
حسين جوهر
محمد أحمد برانق
أمين أحمد العطار
٥

ألف ليلة وليلة

الجزء الخامس

معروف الإسكافى

كتبه

حسن جوهر
محمد أحمد برانق
أمين أحمد العطار

الطبعة الثانية

دار المعارف

رسوم: الفنانة النمساوية ستيلا يونكرز

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

..زء الخامس

صفحة



على شار والجارية زمرد

(١)

كانَ فى خُراسانَ قديمًا تاجرٌ غَنِىٌّ ، ذُو جاهٍ عَريض ، ومالٍ كثير ؛ يُدعى مَجدَ الدين ، ولكنه لم يكن يَشعرُ بلَذةِ الغِنَى ، ولا حلاوةِ الجاه ، فقد كان أعزَّ أمانيه أن يمنَّ اللهُ عليه بخَلفٍ صالح ، تقَرُّ به عينُه ، وينفسحُ أملُه ، وتَبتسمُ به الحياة .

ولم يُحقق اللهُ له هذه الأُمنيةَ إلا بعدَ أن تقدمَ به العُمر ، ووهَن منه العَظمُ ، واشتعلَ رأسُه شَيْبا ، وبلغَ من الكِبر عِتيًّا .

وكانَ اللهُ قد رزقَه مولودًا ذكرًا ؛ وكان وَسيما ، بديعَ الصورةِ ، جَميلَ المحيَّا ، مُشرقَ الوجه ، وضَّاءَ الجبين ؛ سَمَّاه عَلِىّ شار .

اهتم الأبُ بأمرِ ابنه ، وتولَّى رعايتَه ، وتفرغَ لتعليمه ، والعنـايةِ بشئُونه ، ولم يَشْغلْه عنه شاغلٌ ، وبذلَ في سبيلِ ذلك جهْدًا كبيرًا ، ومالاً كثيراً ؛ وكأنّه بذلكَ يُريدُ أن يأخذَ بيـده ، فيجتازَ به المَرحَلةَ الصعْبةَ الشاقّةَ من حياتِـه الأولى فى أقصرِ وَقتٍ قبلَ أن يدركَه الاجلُ ، وتلحقَه المنيَّةُ ، ويتركَ ولدَهُ جاهلا من غير دُرْبَةٍ أو دِراية بشئُون الدنيا والناس .

ولما حضرتْهُ الوفاةُ ، كانت أنظارُه لم تَقصرْ بَعدُ عنْ رعاية ولده ، وبثه تَعليماته ، وإسْدائِه النصحَ له وإرشادِه إيّاه فدعاهُ إليه ، وقال له ، وهُو يَستَودِعُه الدنيا فى طريقهِ إلى الآخرة :

يا ولدى ! لقد حانَتْ مَنِيَّتى ، وقَرُبتْ ساعتى ؛ وأُريدُ أن أوصيَكَ وصـيَّة ، وأنصحكَ نصيحةً ، تُعينكَ على انتهاج السبيلِ السّوِىّ ، وتَنَـكُّبِ طريقِ الضلال ؛ فأعِرْنى سمعَكَ ، وأَقبِـلْ عَلَىَّ بقلبِكَ وعقلك .

فقال له ولدُه : مد اللهُ فى عمرك يا أبى ، ولا حرمَنى عطفَكَ ، ولا منَعنِى بِرّكَ ، ولا فرّق بينِي وبينَكَ ، وجعل يَومى قبلَ يومِك ؛ أما وقد أردتَ أن تتحدَّث إلىَّ ، وتغمرَنِى بعطفِك ، وتسعدنى بفَيض من حنانِكَ وبرّك — فهات ما عندَك من جميلِ النّصح ، وكريمِ الموعظةِ فإنّى آذانٌ مصغية ، وعقلٌ ذاكِر ، وقلبٌ وَاعٍ ، وإنى لك سميعٌ مُطيع .

ثم نظرَ الوالد إلى أبيه نظرة إشْفاقٍ ، وعَطفٍ وحَنان ؛ لأنه لم يزلْ يراهُ رطبَ العُود ، غضَّ الإِهاب ؛ ثم قال له :

يا بُنيَّ ؛ إنكَ لا تزالُ حَدَثًا ، ما عركَتْكَ الأيامُ ، وما حنكَتْكَ التجاربُ ، ولم تَعرِفْ من غدْرِ الناسِ ، ومنْ أخلاقِهم ما عَرَفتُ ، ولم تَقِفْ على كثيرٍ مِنْ طبائعهم ؛ فنَصيحتى لك أن تجتَنِبَ مُصاحبَة الأشْرارِ ؛ وإياكَ وقرينَ السوءِ ، فإنه كنافخِ الكِيرِ : إن لم تحرقْكَ نارُه لم تسلَمْ من دخانِه ، ولا تكْثِر من مخالطَةِ الناس ، ولا تصادِقْ إلا خيارَهم ، والخيِّرُونَ منهم لا تعرِفُهم إلا بعدَ طولِ الخبْرة ، فإذا اطمأنَنْتَ إليهم صاحبْتَهم ؛ فإن لم تستَفِدْ منهم — نفحتكَ سيرةٌ عَطِرة ، وذكْرٌ حميد .

قال علىٌّ وقد اغرورَقَت عيْناهُ بالدموع :

يا أبى ؛ نُصحكَ الغالِى سمِعْتُه ، ووعيْتُهُ .

استمر الوالدُ فى الحديثِ وهو يغالبُ ضَعفَه :

وافعل الخيرَ يا بُنىَّ ، وداوِم عَلَى صُنعِ الجميل ، واغتَنِم بذلَ المعروفِ ؛ وارحَمْ مَن هو دونَك يرحَمْك من هو فوقَك ؛ ولا تظلِمْ أحداً فيُسلطَ اللهُ عليكَ من يظلِمُكَ ؛ ولا تتعجلْ فى تصريفِ أُمورِك ؛ وشاور من هو أكبرُ منكَ سنًّا ؛ وأكثر خِبْرة .

فقال الولد — وقد بدَتْ عليه علاماتُ التأثرِ الشديد ، لأَنه رأَى فى وجْهِ والدِه ، واختلاج عينيه ، وشحُوبِ لونه ، وتهدُّج صَوتِه ، وضَعفِ

نبراته ، وخُمودِ جسمِه ، وارتخاءِ ذِراعيْه — رأى فى كل ذلكَ ما يؤكّدُ دنُوّ أجَلِه :

سأعملُ بكلٍّ ما تُشيرُ عَلَيَّ به يا أَبى ؛ فزِدْنِى عِلْماً ونُصحاً .

فقال الأَبُ : احفَظْ مالَكَ ، وأَحسن القيامَ عَلَيهِ ، وثَمِّرْه ، ولا تُفرطْ فيه ، فإنَّكَ إن فرطْتَ فى مالكَ مددْتَ يدَكَ إلى أَقلِّ الناسِ شأْناً ، وقد تمدُّها إلى أَعدائِك فيشمتُون بكَ ، ولا تَضمنُ إن كانوا يعطونَكَ أَو يردُّونَك ؛ واعلمْ أَن قيمةَ المرءِ فيما ملكَتْ يمينُه من مالٍ ومَتاع .

وإيّاكَ وشُربَ الخَمر ، فهى رأسُ كلِّ شرّ ؛ وهى مُذهبةٌ للعقُولِ ، مضيِّعة للهيْبة ، متْلفةٌ للمال ، مفسِدَةٌ للصحة .

فقالَ علىّ وهُو يَبكى : سَمْعاً وطاعَةً يا والدى ، زِدْنى من حِكْمتِكَ .

وما زالَ الوالدُ يوجّه ولدَه ، ويُرشِدهُ ، حتى غشيتْه غاشيةُ الموتِ ، وفصلَتْ بينَه وبيْنَ ابنِه .

وشقّ عَلَى علِىّ شار كثيرًا فراقُ هذا الأَبِ الحكيم الحنُون ، فحَزِن عليه حُزناً شديداً ، بَرّح به كل مُبرح .

ولم يمض وقتٌ طَويلٌ على وفاةِ الأَبِ ، حتّى طَوى الموتُ الأُم .

ففقدَ على شار بفقْدِهما كلَّ صاحبٍ أَمين ، وكلَّ مرشدٍ مُعين .

ولكنه كانَ حريصاً على مَبدإ أَبيه ، عامِلاً بنَصيحته ؛ سائِراً عَلَى

آرائه ، مهتديًا بإرشاده : فظلَّ كذلكَ زمنًا طويلا كالطّودِ الشّامخ ، تتكسّرُ عليه مُحاولاتُ أصحابِ السُّوء ، وترتدّ عنهُ تدبيراتهم لإيقاعِه فى حبائِلِ شُرورِهم ، وبُؤرِ مفاسِدِهم ؛ طامِعينَ فى مالِه ، آملينَ فى مَغنمٍ يعودُ عليهم منه .

ولم ييأسْ أصحابُ الشرّ ، ومُدّعِى الخير ، من الطّن فى آذانِ الفتَى الحدَث ، ونَفثِ سُمومهم فيه . حتى وجدُوا أخيرًا المنفَذ الذى استطاعوا أن ينفُذُوا منه إلى عقلِه وقلبِه .

وعلى أثَرِ ما وجَدُوا فيه من ضَعف ، وما رأوْا من مَغمز ـ استطاع أبالسةُ البشرِ أن يوسْوسُوا إلى الفتى الذى قرَّ فى ذِهنه أن هذا المالَ الكثير ، الذى تركَهُ له وَالدُه : لا يمكن أنْ ينفَدَ وقال له شيطانُه : إذا تركْتَ هذا المالَ الكثيرَ كما تركَهُ أبوكَ ـ فمن ينفِقه ؟ ! ولمنْ تتركه ؟ ! وإن لم تتمتع به فمن الذى يتمتعُ به ؟ !

وعلى ذلك انحدرَ به المفسِدُون إلى مَهاويهم ، وانزلقُوا به إلى مَزالِقهم ، وبَذرَ المال كبذر الحب ؛ وبعثر باليمينِ وبالشِّمال . فما مضَى من الزمنِ إلا القَليلُ ، حتى كانت الثروةُ الكبيرةُ قد ذهَبتْ هَباء ، وبددَتْها أيدِى الشياطِين .

وأصبحَ عِلىّ شار عَلَى أسوإ حال ، وأدركَ بعد فواتِ الأوان قيمةَ نَصائحِ أبيه ، وعاقِبةَ نسْيانه لها ، وإنكارِه إيّاها ، وتغافُلِه عنها .

وما زالَ الحالُ ينحدرُ بِه من أسفل إلى أسفل ، وينتقِلُ به من سَيِّئٍ

إلى أَسْوأَ — حتى كسدَتْ تجارتُه ، وبيعَ أثاثُه ودارُه ، وأصبحَ صِفرَ اليديْن .

والتفتَ حولَه ، فلم يجدْ لأصحابه وخِلاّنه أثرًا : فقد انفضّوا من حَوْله ، وتركُوه وَحيداً لا يَجدُ داراً تؤْويه ، ولا ثوباً يرتديه ، إلا ما يَستُرُ به جَسَدَه ؛ فتعجّبَ لحالِهم ، وأخذَ يفكرُ في سببِ انقطاعِهم ، فلم يفطِنْ إلى السبب ؛ فسعى إليهم ليأنس بهم ، ويَعرِفَ خبرهُم ، ويَرجُو منهم المساعدةَ بما أسلفَ معهم من مَعْروفٍ وبِرّ .

وما كان أَشَدّ دهشتَه ، وأكبرَ لوْعتَه — حين تنكّر له جميعُهم معرضين عنه غيرَ آسفين لما جَرَى عليه ، ولا رَاثِينَ لما أصبحَ فيه بسببهم .

وبينما هو سائرٌ في سوقِ التجارِ شاردًا فِكْرُه ، تتلوّى أمعاؤه جُوعاً — إذ مَرَّ على جمع كبيرٍ من النّاس ، فانتبَه لنفسِه وسَأَلَها : ما عِلّةُ هذا الزحام ؟ ! وعلام الناس يجتمعون ؟ !

ومدَّ بصرَه ، فرأى جاريةً مليحةً تباعُ ، والناسُ من حولِهاَ يَنْتظرونَ قُدوم الدلاّل ليفْتَح بابَ التزايُد وحينئذٍ يَتزايدُونَ ، ويُغلُون ثمنَها .

فاقْتربَ من القومِ ، ووقَفَ يُسرّحُ الطرْفَ ، حتى استقَرتْ عينُه على الجارِيةِ المعروضَةِ للبيْعِ ، فوجدَها جَاريةً باهرةَ الحُسنِ ، رائعةَ الجَمال ، ذات جاذِبيةٍ ودَلال .

فقال لنفسِه : والله لا أنتقِلُ من هُنا ، حتى أرَى : بِكَمْ ستُباعُ

هذه الجوهَرةُ الغالية ؟ ومن سَيحوزها ؟

خضرَ الدلالُ ، ووَقفَ أمام الجارية ، واستفْتح بقوله :

يا تُجار ، ويا أَربابَ الأموالِ ؛ مَن يفتحُ باب الشراءِ على هذه الجوهَرةِ الثمينة ، والدرةِ الغَالية ؟

فقال تاجرٌ من الحاضرين : أَنا أشتَريها بخَمسمائةِ دينار .

فقال تاجرٌ آخر : أزيدها عَشْرة .

فبرز شيخٌ أزرقُ العَين ، قبيحُ المنظَرِ ، يسمّى رشيدَ الدين ، وقال — : ومائة .

وقال آخر : وعشرة .

فقال الشيخ رشيد الدين : عليّ بألفِ دينار .

فكفّ التجارُ عن المساومَةِ . وتقدمَ الدلال إلى صاحبِ الجارية يشاوِرُه في بيعِها للشيخ . فقال :

لقد أقسمتُ لها ألاَّ أَبيعَها إلا لمنْ تَختارُه هي ، فشاوِرْها في ذلك .

فجاءَ الدلالُ إلى الجارِية وقال :

يا جارية ؛ إن هذا التاجرَ يريدُ أن يشتريَكِ ؛ فما قولُك ؟

فنظرت الجاريةُ — وكانت تُدعى زُمُرُّدَ — إلى التاجرِ الشيخ . وقالت :

أنا لا أُباعُ لشيخ أوقعَه الهرمُ في أَسوإِ حال .

فعاد الدلال بالرأيِ إلى صاحِبِها ؛ فقال له : شاوِرْها في غَيرِه .

فتقدمَ رجلٌ آخَر وقال : علىّ بما أعْطى َالشيخُ .

فنظرت الجاريةُ إليه ، فوجدته مَصبوغَ اللحية ؛ فقالت — :

ما هذا العيبُ والريب ، وسوادُ وَجهِ الشيْبِ ؟ ! لَقَدْ تَكاثَر الغشُ حتى صَارَ فى الشَّعْر .

ولم يَرقْها أن تَبيعَ شبابَها ، وفِتنَتَها ، وجمالَها — لرجلٍ قبيحٍ ، أو شَيخٍ هَرِمٍ ؛ مهما أغلى ثمنها

فقال لها الدلال : معكِ الحقُّ يا بُنيّة .

وأبلغَ الرجلَ رفْضَها إياه ؛ فاستحيا ، وتأخر عن شِرَائها .

تقدمَ رجلٌ آخر ، فوجدتْه أعورَ ذا عينٍ واحدة ، فرفضتْهُ كذلك ، وابتسمت ابتسامةً ساخرة لاذِعَة ، وقالت : ليت عينَيْه سواء !

فأشارَ لها الدلالُ بيده إلى رَجلٍ آخر ، وقال لها : أتقبلينَ هذا الشارى ؟ فنظرَتْ إليه فوجدتهُ قَميئاً ؛ تدلّت لحيتُه على صَدرِه ؛ فغطّتْ نصفَ طوله ، فابتسمت ابتسامتَها الساخرة اللاذعة ، وقالت — : لا تأمنُوا شرّ من قرُب من الأَرض ، ثم أدارَتْ وجهها وتمتمت : إن القماءَةَ ذلّة . ورفضَت أن تبيعَهُ نفسَها ، وأشارت إلى لحيته ، وقالت — : إنها لحيةٌ طويلة باردة مظلمة ، يروح عليها البعوض ويغدو ، ويسرح فيها ويمرح .

فضحك الدلالُ وقال :

يا فتاة ؛ انظرِى، هؤُلاء التجارُ أمامِك، فتخيَّرِى لنفسِك ما يُرضيها .



نظرت الجارية فى حلْقَة التّجارِ ، وفيمن وقفَ حولهم مِن الناسِ ، وتفرسَتْ فِيهِمْ واحداً بعد آخر ، حتى وَقع نظرُها عَلى عَلِيّ شار .

فقالت : يا دَلال ؛ أنا لا أُبَاعُ إلا لهذا السّيدِ ، صاحِبِ الوَجه الصَّبوح ، والقَدّ المليح ، والجَبين المُشرِق ، والرّوح الخفيف .

فتعجبَ الدلال لفَصاحتِها ، وسُرْعةِ بديهَتِها ، وحلاوةِ كلامها ، وعذُوبةِ لسانَها ، وحُسن اختيارها ، فقال له صاحبُها :

لا تعجَبْ ، فإن فصاحتَها ، وسرعةَ بديهتها — لأَلمعُ ظهوراً من رائِع جمالها ، وإشراقِ بَهجتها . فهى فضلا عن نظمها لرقائقِ الأشعار ، تحفظُ القرآنَ ، وتجيدُ تلاوتَه ، وتعرفُ أكثر القراءات فيه ، وتروى الأحاديث الشريفة ، بِصَحيح الروايات ، وتكتبُ بالسبعة الأقلام ، وتعرفُ من العلومِ ما لا يعرفُه العالِمُ العَلّامة .

أما يداها فإنها تخرجُ من أَشغال التّطريز عَجَباً ، فهى تعملُ السُّتورَ الحريرية وتُوشّيها بخُيوطِ الحرير والذّهب والفِضة ، فيُباع الواحدُ منها بخمسين ديناراً .

فما أسعدَ من سَيفُوزُ بها ، ويجعلُ منها سيدةً لداره .

فقال الدلالُ : حَقّاً إنها لدُرّةٌ غاليةٌ ، وقد أَصبتَ فى أنكَ جعلتَها تختارُ لنفْسِها ، فلا يَشتريها إلا مَن ترغَبُ هى فى بيع نَفسِها له ، فهِىَ أعظَمُ وأَغلى مِن أن تُدفَع إلى كلّ من يرغَبُ فيها ، وإن كانَتْ غيرَ رَاغبةٍ فيه ، لأن مثلَ هذا العقلِ الواسِعِ ، والأدَب الجَمّ ، والعِلم

الغَزِير — لا يُرْغَمُ على مصاحَبةِ من لمْ يرْغَبْ فى مُصاحَبته .

وقصد الدلالُ من فورِه إلى عَلِىّ شار وقال له :

يا سَيّدى ؛ اشتَرِ هذه الجــاريةَ فإنها لم تَختَرْ غيرَكَ شارِيًا لها ، وما ارتَضَتْ سواكَ سَيّدًا عليها .

وعَدَّدَ له صِفاتِها ، وذَكَرَ له مواهِبَها . ثم قال :

هَنيئًا لكَ إذ فزْتَ بها ، فقد أعطاكَ من لا يَبخلُ بالعطاء .

فأطرَق عَلِىّ إلى الأرضِ ، وهو يَضحكُ من نَفْسه تارة ، ويأسفُ عليها تارةً أخرى ، إذ يُعرَضُ عليه شِراءُ جاريةٍ ثمنُها ألفُ دينار ، بينَما هو لم يَذقْ طَعامًا فى يَومِه ، وغلبَ عليه الخجلُ ، فلم يَقْوَ على المجاهرَةِ بحاله أمام جَمع التجار .

وطَالَ إطراقُه وسكُوتُه، فلما رأت الجارية منه ذلك قالَتْ للدلال:— امْض بى إليْه ، حتى أَعرِضَ نفسِى عليه ، وأرَغّبَه فى أَخذى ، فإنى لا أُباعُ إلّا له ، وما دَامَ سيدِى قد جعَلَ لِى حقّ الاختيارِ فقد اختَرتُ هذا ولا أرتضى غيرَه .

فصحِبَها الدلال إلى عَلِىٍّ شار وأوقفَها أمامَه ، وقال له :

ما رأْيُكَ يا سيدِى ؟ إن الجاريةَ لم ترغَبْ إلّا فيك ؛ وأراكَ أطرقْتَ إطراقةً طويلة ، تفكرُ تفكيراً عميقاً كأنّ هَمًّا شَديداً يعتلجُ بين جَنْبَيْكَ ، وتحاولُ أن تكتُمَه أو تُخفِيه . سَمِعَ عَلِىّ هذا الكلامَ فاستمرَّ فى إطراقِه ، ولم يردَّ عليه جَوابًا ، وكأنه لم يسمعْ شيئًا .

فقالت الجاريةُ : يا سَيدِى ؛ مالَكَ لا تُريدُ شِرَائِى ؟

ابْتَعْنِى بما شِئْتَ ، وسأكونُ سبَبًا فى سعادَتِك وهناءتِك؛ فسيتسع رِزْقُك ، ويكثر مالُكَ ؛ وستُقْبِلُ الدنيا عليك . فانتهِزْ هذه الفُرْصة

فرفعَ عَلِىّ رأسَه إليها وقال : عرفْتُ أن الخيرَ فِى يَديك ، وهل أبتاعُكِ على الرغم مِنْ ضِيقِ ذاتِ يَدِى ؟ إنَّ ثمنك غالٍ ، ولا أَستطيعُ دفعه .

فقالت له : اشترنى بتسعمائةِ دينار

قال : ليتنى أملكها

قالت : بثمانمائة

قال : لا أقدِر ، ولا يَمنعُنِى عن شرائِكِ إلّا عَجْزِى .

فما زالت تنقصُ فى الثمن مائةً بعد مائة ، إلى أن قالتْ — : مائة دينار

فقال : وما مَعى مائةٌ كاملة .

فضحكت ، وهمسَتْ فى أذنه : كم تنقص مائتُك ؟

فقال ، وقد احمرَّ وجهُهُ خجلا ، وتصبّب جبينه عرقًا :

إنى أَصدقك ياسيدتى ، فما معى مائةٌ ولا غيرُها ، ولا أَملكُ ديناراً ولا دِرهماً ؛ فتخَيَّرِى لك مُشترياً غيرى، وكفاكِ إحراجاً لى ، وعوّضَنى الله مما فقدته خيراً . فتَفَرستْ فيه الجاريةُ مشدوهة ، فتحققتْ من وجههِ صدق قوله .

فأخرجتْ من طياتِ ثيابها كيساً به ألفُ دينار ، وفى غفلةٍ من التاجرِ أعطتهُ الـكيس ، وقالت له :

ادفَعْ منه تسعمائةٍ في ثمنى ، وأَبقِ المائةَ معكَ ننتفعُ بها .

ففعلَ ما أمرتْهُ ؛ واشتراها أمامَ الناس بتسعمائة دينار ، دَفع ثمنَها من ذلك الكِيس ، ومضى بها ، وهى تكادُ تَطيرُ من فوقِ الأرض فرحاً بصُحبَتِه . — فلما وصلتْ إلى دارِه وجدتْها قاعاً صفصفاً ، لا أثاث ولا رياش ، ولا أوانى ، ولا طعام بها .

فأعطته ألف دينار أُخرى ، وقالت له :

امض إلى السوق ، فابتع لنا بثلثمائة دينارٍ أثاثاً ، وأوانِيَ للدار . فخرجَ وابتاع ما أَمرتْ به وأَحضره مع الحمالين ، ثم قالت له :

اذهبْ أيضاً وابتعْ لنا مأكولا ومشروباً بثلاثة دنانير ، وأَحضرْ قطعةً من حرير على قدرِ سترٍ ، واشتر من « القصب » خيوطاً من ألوانٍ مختلفة : صفراء وبيضاء ، واشتر خيوطاً أُخرى من حرير ، ملونة سبعة ألوان ، فإذا عُدتَ إلى الدار ، وجدتنى نظفتُها ، ورتبت أثاثها ، وأعددتُها لإقامتِنا إعداداً يَسرّكَ ، ويذهب عنك حزْنَك.

ولما عاد عَلِيٌّ إلى داره وجدَها قد استحالَتْ إلى روضة من الرياض النضرة ، يسر العين نظامُها ،وتشرحُ الخاطرَ نظافتُها ورُواؤُها ؛ فانشرح صدرُه وابتهجَتْ نفسُه ، وامتلأ قلبُهُ سُروراً .

وكانتْ زمردةُ قد أَعدَّت الطعامَ وهيأَتْ سفرة جملة ، فأكلا وشربا . وبعد أن فرغا من تناول طعامهما ، وكانت لا تفتأ تُحدثُه بأحادِيثها العَذبة ، وتُضاحكه بنوادِرها اللطيفة ، وطرائِفِها المليحة — نهضَتْ فأَوْقدَت

الشموعَ ؛ وأَخذَت السِّتر فطرَّزَتْه بالحرير الملوّن ، وزَرْكَشَتْه بالقَصب ، وقسمتْهُ إلى أَقسام ، رَسَمَتْ فى بعضها صُوَر ما اختارته من الطيُور ، وفى بَعضها صُورَ ما استحسنتْ صُورتَه من الوحوش .

واستغرقَ منها تَطريزُ هذا الستر ثمانية أيامٍ كاملة . فلما فرغت منه صقلته وأَعطتْه سيدَها عَليّا وقالت له :

اذهَبْ به إلى السُّوق ، وبعْه بخمسينَ ديناراً لأَحدِ التجّار ، واحْذَرْ أن تبيعَهُ لأَحدٍ من عَابرى الطّريق . وإن بعتَهُ لغيرِ تاجرٍ ، فإنَّ ذلك يكونُ سبَباً فى افتراقنا ، لأن لنا أَعداءً لنْ يَغفلُوا عنا ؛ فهم يَرقُبونَنا ، ويحصُون علينَا كلَّ أَعمالنِا

توجَّه بالستر إلى السُّوق ، وباعه لتاجرٍ بخمسين دينارا . ثم أحضر لها نسيجَ سترٍ آخر لتَطريزه .

وهكذا صارَ كلَّ ثمانيةِ أيام يأخذُ منها ستراً مُطرّزاً ويَبيعُه لأَحدِ التجار ، ويحضر لها غيرَه لتصْنَعَه ، وكانَ دخلُهما خمسينَ دينارًا كلَّ ثمانية أيام . وعاشَا على أتم وِفاقٍ ، وأحسن حال ، وأهنأ عيش — سنةً كاملة . ثم خَرج عليٌّ ذاتَ يوم إلى السوقِ ، ومعه السترُ ليبيعَه على عادتِه . فتقدم إليه رجلٌ مجوسىٌّ كان واقفاً بين التجار ، وقال :

أنا آخذُه بستّين دينارًا

فامتنع علِيّ من بيعه له ، فأخذ المجوسِىُّ يزيدُ له فى الثمن ، وهو يمتنعُ ، حتى بلغَ الثمنُ مائة دينار . فأصرّ علِيّ عَلى الرفض ، وأَرادَ أن يأخذَ الستر



وينصرف ، ولكنّ المجوسيَّ لم يكُفّ عن إلحاحه وإلحافِه في الاستيلاء على الستر . وخاطب تاجرًا في التّوسط له لإقناع عليّ بالنزولِ له عنه ، وأعطاه نظير تلك الوساطة مبلغاً من المالِ مُغرياً . تقدَّمَ هذا التاجرُ إلَى عَلِيٍّ وألح عليه في بيعِ الستر للرجُل المجوسيّ ، وقال له :

يا سيدي ؛ لا تخفْ من هذا المجوسيّ ، فما عليك منه بأس وستأخذ الثمن وهو يأخذُ الستر ، ثم يمضي كل منكما إلى سبيله — وشعر تجارُ السوق بما حدث بين علي والمجوسي ، فتعجبوا من أن يرفُض الفتَى بيعَ الستر بهذا الثمن الكبير ، ورغبوه في بيعه للمجوسي ، فنزَلَ على رغبتهم وباعَهُ لهُ مكرهاً ، وقبضَ ثمنَه ، وقفلَ راجعاً إلى منزله ، وقلبُه يتوجّسُ خيفَة .

وحانَتْ من عَلِيّ شار التفاتَةٌ وهو يَهمُّ بدخولِ الطريق المؤدِّي إلى منزلِهِ ، فلمحَ المجوسِيَّ يسيرُ خلفَه يَسترِقُ الخُطا ، فدهِش لذلكَ أشدَّ الدهشَةِ ، وتوقَّفَ عن المسيرِ ، وواجَه الرجل المجوسيّ قائلا :

ما بالُكَ يا رجُل تسيرُ خَلفِي ؟! ألَكَ عِندي حاجة ؟!

فقال : ياسيدِي إنّ لى حاجة في صدْرِ هـذا الزُّقاق ، أُريد قَضاءها . فتركه عَلِيٌّ ومَضى إلى مَنزله ، وهو يُخالسُ الرجلَ نظرَ المستَرِيب . وإذا بالمجوسيِّ مازالَ يلاحِقُه ، حتى وصلَ إلى باب المنزل .

فصاحَ فيه الفتَى قائلا : حَقًّا ! إنَّ أَمركَ لعجيبٌ ! فلماذا تتبعني أَيْنَما أسيرُ ؟! وماذا تَبتغِي مِنِّي ؟!

فقال الرجلُ باستكانةٍ وتَوسل : ياسيدي ؛ أُريدُ منكَ أن تسقِيَني

جرْعَة ماء ، فإنِّى ظمآن ، وسيكُونُ أجرُكَ كبيرًا عند الله .

فقال علىٌّ فى نفسه : هذا رجلٌ قصدَنى فى شرْبة ماء ، فوالله لاأخيّبُ أملَه . ولعلَّ أمرَه ينتهى عند ذلك .

ثم دخلَ المنزلَ وملأ إناءَ الماء ، فرأته زمردة ، فقالت له :

هل بعتَ السِّتر ؟

قال : نعم

قالت : ألتاجر أَم لعابرِ سَبيل ؟ فإنّ قَلْبِي مُنقَبضٌ ، ونَفْسِى غير مُطمئِنَّة ، وأُحِسُّ قلَقًا لا أعرِفُ له سبباً .

قال وهُو يحاولُ إخفاءَ كَذِبه : إنما بِعْتُه لِتاجر

فماوَدَتْه السؤال ، وكأنها أحسَّتْ أنَّ فى الأمرِ سِرًّا : أَخبرنى بحقيقة الأمرِ ، حتى أتداركَ أَمرِى ؛ ولمنْ تأْخُذُ إناء الماء ؟ !

قال : لأَسقِىَ الدَّلال .

فقالت : ليسَ لنا حولٌ ولا قوة إلا بالله ! !

وخرجَ علىٌّ بإناءِ الماء إلى الرجُل ، فوجدَه قد تدرج فى الدخول من الباب إلى فناءِ الدار ، فنهرَه قائلا :

هل وصلَتْ بك الوقاحَةُ يا رجلُ إلى أن تتعدى ، وتدخُلَ منزلى من غير إذن ؟ !

فقال الرجل : يا سَيدى ، لا فَرق بينَ الباب والفناء ، وماعدت أنتقل من مكانى هذا إلا إلى الخروج . وقد أحبَبْتُ أن أستَترَ حتى أَشْرب ثم أخذَ

منه إناء الماء ، وتجرّع ما فيه ، وناولَهُ إيّاه ، وانتظر عَليٌّ منه أن يعودَ منصرفاً ، ولكنه لم يَفْعَل ، فتملكه الغيظُ . وقال له .

لماذا لا تذهبُ إلى حالِ سبيلك ؟ !

فقال المجوسىُّ فى تلطفٍ وهدوء واستكانة : يا مولاى ؛ لا تكنْ ممن فعلَ الجميلَ ومَنَّ به ؛ وايْمُ الحق ، لقد أحبَّتْك نفسى ، وحللتَ مِنْ قلبِى محلاًّ كريماً ؛ وأريدُ أن تطعِمَنى أىّ شيءٍ مما عندك ، حتى يكونَ بيننا « عيش وملْح » .

فقال عَلِيٌّ : قم يا رجلُ وانصرفْ ؛ فإنى لا أُحبّ مماحكة ، ولا لَغْوًا فى القَول . وليس عندى أىُّ شيءٍ فى البيتِ تطعَمُه .

وكان علىٌّ يخشى أن يطلبَ طعاماً من البيتِ ، فتكشف زمرد أمرَ الستر .

قال الرجل : يا مولاىَ إن لم يكُنْ فى البيتِ شيءٌ يؤكَلُ ، فخذ هذه المائة الدينارِ ، وائتْنا بشيءٍ من السوق ، ولو برغيفٍ واحد نقتسمُه بيننا ، لتتأكد المعرفة ، وتقوى الصداقة ، وتدومَ المودة .

فخطر لعلىّ أن هذا المجوسىّ لا بد أن يكونَ مجنوناً ، إذ يعطيه مائةَ دينار نظيرَ أكلةٍ لا تُساوى غيرَ درهمين .

فقال له : أىّ شيءٍ تأكل ؟

قال : أى شيءٍ يطردُ الجوع — وإنْ قلّ — خير عندى من أى طعامٍ فاخر .

فأشارَ له عليٌّ أن ينتظِرَ حيث هُو ، وذهبَ فأغلق بابَ الدار الداخلى بالمفتاح وأخذَه معه ؛ ثم توجّه إلى السوقِ ، واشترى جُبناً ، وزبداً ، وعسلا ، وموزاً وخبزًا ، وأتى به إليه .

فقال المجوسىُّ : يا مولاىَ ؛ هذا شىء كثيرٌ يكفى عشرةَ رجال ؛ فتكرم علىَّ وكلْ معى .

فقال علىٌّ : كل أنتَ فإنى لا أشعرُ بجوع .

قال الرجل : يا سيدى ؛ إننى الآن ضَيفُكَ ، وواجب على المُضيفِ إكرامُ الضيف ، ومجاملتُه ، ومؤانسته .

فلم يرَ علىّ بُدًّا من الجلوسِ معه ، ومشاطرته شيئاً من طَعامِه ، وهو كاره متأفف .

وبعد أن أكل شيئاً قليلا كف يَده ، وأراد أن ينهض ؛ فأعطاه المجوسىُّ موزةً كان قد قشرها ، وشقّها نصفَين ، ووضع بين شقيْها على غفلةٍ من علىّ شيئاً من البنج النقِى ، السّريعِ التأثير ، ثم غمسهَا فى العسل وأقسم عليه أن يأكُلَهَا .

فأَخذَها علىٌّ منه ، فما استقرّتْ فى بطنِه حتى غابَ عنهُ رُشْدُه ، ولحقتْه غيبوبةٌ ثقيلَة ، وارتمى عَلَى الأَرض كأنه قد فارقَ الحياة .

حينئذٍ نهضَ المجوسىُّ متنمّراً ؛ تنطِقُ سماتُ وجهه بالشرِّ والأذى ، فنزع من بين ثيابِ علىّ مفتاحَ الدارِ . ثم جَرى إلى الطريقِ ، وأسلم ساقَيْه للريح . حتى وصلَ إلى منزل فى الناحية الأُخرى من المَدينة ،

فدخلَه ، وتوجهَ إلى قاعةٍ كان يجلسُ فيها ذلك الشيخُ الهرمُ الذى كان يشترى زمرد بألف دينارٍ ولم ترضَ به ، وشرع يَقُصُّ عليهِ ما فعله مع علىٍّ شار ، وما تمَّ له .

فانبسطَتْ أساريرُ الشيخ، وتهلَّلَ وجههُ ، وربَتَ على كَتفِ المجوسىِّ ، وقال له :

إنك بارعٌ يا أَخى فى تدبيرِ الحِيَل .

فضَحكَ ضحكة عاليةً وقال : أَلم أَعدْك يا أخى أن آتيكَ بهذه الجارية ، التى سخِرَتْ منْكَ بين جميعِ التجار — على الرَّغْمِ مِنْهاَ ؟

فضَحِك الشيخ وقال لأخيه : هيا بنا يا برسوم إليها ، وسترى كيفَ أُذيقُها العذابَ ألواناً ؛ ولنْ أَكْتَفِىَ بذلك بل سأُرغمُها عَلَى اعتِناقِ ديننا الذى أَعتنِقهُ باطناً ، وأَحكَمتُ إخْفاءه عَن الناسِ فسمَّيْتُ نَفْسِى رَشِيدَ الدين ، حتى لا يُعرفَ أَمرى .

ثم خرجا وكأَنهما ماردان خبيثان ، قد وكِّلا بنشر الشر ، وبذر الفساد فى الأرض .

امتطيا دابتَيْنِ ، واصطحباَ معَهما بعضَ الغِلمان ؛ ليعاونُوهما فى خِطتهما الفاجِرة الجهنمية ، وتزود الشيخ بكيس من النقود ، ليشترى به ذمم من يعترضُ سبيله من رجال الوالى .

ولما وصل الشقِيَّان ، وأعوانهما إلى منزل علىٍّ شار ، ترجَّلا ، وفتحا الدار بالمفتاح وأَمرا رجالَهما بالهُجوم على زمرد وحَمْلها قسْرًا .

— فلما رأَتْ زمردُ الرجالَ يقتحمونَ عليها بيتَها ذُعِرتْ ذُعرًا شديدًا ، واعتصمتْ بغُرفَتِها ، ولكنهم لم يُمهِلُوها ، وحالوا بينها وبين الباب فلم تستَطع إغلاقَه ؛ ولما هَمَّتْ بالصراخ والاستغاثة ، سدوا فمها بأيديهم ، وهددُوها بالقتل إذا حاولَتْ أن تحدِثَ هرجاً أو مَرجاً ، أو رفعتْ صوتَها لتستنْجِد ، أو امتَنعت على الرجال أن يحملُوها إلى حيث يَشاءون .

— استسلمتْ زمرد ، وفوّضَتْ أمرَها إلى اللهِ ؛ فحملَها الرجالُ وخرجُوا من المنزل جميعاً ، بعد أن ألقَوْا بِمفتاحِ الدار بجوارِ عليٍّ شار ، الذى كان لا يَزالُ راقداً على الأرض لا حراكَ به .

ولما وصلَ الشيخ المجوسِيُّ بزمرد إلى قَصرِه ، قال لها :

أتعرفين يا لعينة من أنا ؟ !

أنا الشيخ الذى رفضتِ أن يشتريَكِ وهجوتِه ، وسخرتِ منه ، وهزِئتِ به ؛ قد أخذتكِ الآنَ مرغمة .

فهطلت الدموعُ من عينِ زمرد ، وقالت : حسبُكَ اللهُ يا شيخَ السوء إذْ فرقْتَ بينى وبين سيّدى .

فقال لها : يا جاريةَ النحس ؛ سوفَ ترينَ ما سأنزلُه بكِ من العذاب إن لم ترتَضينى سَيِّدًا لك ، وتَدخُلى فى دِينى .

قالت زمرد : واللهِ لو قطعتَ لحمى قِطعاً ما أفارقُ دِينى ، ولعل اللهَ يأتينى بالفرج القَريب : فلئن كانَ دينُكَ عزيزًا عليكَ ، فإن دينى عزيز

عليَّ ، واعلم يا شيخُ أن الدِّين لله ، والقومية للوطن ، والإنسانية للعالَم ؛ فدينك لنفسك ، وقوميتُك لوطنِك ، وإنسانيتُك للعالَم أجمع ، ثم اعْلَمْ أن الدينَ الصحيح لا يختلف في أصوله وعمومه عن غيْره من الديانات الصحيحة ، لأن كلّ دينٍ صحيح سليم يرمى إلى تنزيه النفس ، وتخليصِها من الشر ، والاتجاهِ إلى الخير ، ويرمى إلى أن يحِب الناس بعضهم بعضاً ، ويخلص بعضهم لبعض ، ويتعاونوا على البر والتقوى ، ولا يتعاونوا على الإثم والعدوان ، وَأَن يتواصَوْا بالخير .

وإن أنواعِ العباداتِ تختلف صُورها وأشكالُها باختلافِ الأديانِ ، ولـكنَّ الغايةَ واحدة ، وهى الاتجاه بالنفسِ البشرية اتجاهاً روحيًّا ليرتفعَ الناسُ عن دَنسِ المادة ، ويفروا من شرُورها .

سمع الشيخُ من زمردَ هذا الكلامَ ، فأعجبه كلامُها بعض الإعجاب ، وأَحَسَّت هى ذلك ، فاسترسَلتْ فى كلامِها لعل الشيخَ يتأثر فيطلقَها من عِقالِها ، ولـكنه لم يلبَثْ أن انتفَضَ انتفاضَةً شديدة ، وأمرها أن تُمسِكَ عن الكلام ، وأعادَ عليها كلامَها الذى كانت تسخَرُ به منه فى السّوق أمام التجار ، ثم أمر غِلْمانَه أن يَطرَحُوها أَرضاً ، ودعا بسَوْط ، وأخذَ يضربُها ضرباً مُبرّحاً ، وهى تصرخُ وتستَغيث ، وتتلَوَّى تحتَ السياطِ السريعةِ المتتابِعَةِ التى تُلهِبُ جسمَها الغضَّ البضّ ، فلا يُغيثُها أحد .

— وما زال الرجل يضربها ، ويتناوَبُ ضربَها هو وغِلْمانه ، حتى ضَعُفَ

صوتَها ، وانقطع أَنينُها ، فقال للخَدم : جُروهَا عَلَى الأَرضِ ، وألقُوها فى المطبخ ، ولا تُطعِمُوها شيئًا .

ففعلوا بها ذلك ، وظلَّت نهارَها وليلَها فى غَشيةٍ شَديدة من ذلك الضَّربِ الموجع .

— وفى صبَاحِ اليومِ الثانى كرَّرَ عليها القولَ والضرب ، فلم تتزعْزَع ولم يضعفْ إِيمانها .

فلما كلَّ أَمَرَ الخدمَ بإِعادتها إلى مكانِهَا ، ففعلوا وهى لا تنبِسُ ببنتِ شَفة ، فلما أَفاقَتْ . قالت : أَشْهدُ أن لا إِله إِلا الله ، وأن محمدًا رسول الله ، ولا حولَ ولا قوةَ إِلا بالله .

(٢)

أما علىُّ شار فقد ظلَّ راقدًا تحتَ تأثير البنج إلى اليومِ الثانى ، ثم ابتدأ ينقشِعُ هذا التأثير شيئًا فشيئًا حتى أَفاقَ ، واستردَّ وعْيَه ، فنهضَ ونَادَى : يا زمرد .

فلم يلْقَ مُجيبًا . فنهضَ ، ودخل يبحثُ عنها ، وهو ينادى : يا زمرد .

فلم يسمع جوابًا ؛ فالدارُ ساكنة سكونَ القبر ، لا تسمع فيها هَمْساً ، فكاد يذهل ، ولكنه هدأ قليلاً ، واستعرضَ ما جَرى بينه وبين ذلك الرجل الخَبيث ، وقدر ما حصل ، وعرفَ أن ما جَرى عليهِ

كان بِسَببِه ؟ وأنه احتال عليه ، ونفّذ بسبب غفلتِه وبلاهته مأرَبه . فندِمَ على ما فعله حيث لا ينفعُ الندم ، وأخذ يصرخ ويحن ، ويشتكي ويئن ، ويشق أثوابه صائحاً :

يا زمرد .

وَعاد على نفسِه باللّوم والتوبيخ ، والتأنيب والتقريع ، ثم سكتَ بعضَ الوقت . وجلس مُطرقاً ساهماً ، حائر النظر ، مشدوهاً مبهوتاً ؛ وكان ينتفض أحياناً ، ويخرج من صدره زفرة ، ومن فمه أنة ؛ إذا رأيته وهو يزفر ويئن . خِلْتَه قد انشق صدره ، وتصدع قلبـــه ، وبلغ حنجرته ، وبعد هدوء قليل ، يهز رأسه ويصيح كالمجنون :

يا زمرد .

يا زمرد ! يا فتاتي ! يا حياتي ! يا نعيمي ! يا نور عيني ! أين أنت يا زمرد ؟

ثم جعل يقول : أين أنت يا زمرد ؟ ! !

لقد أحييتِ قلبي ، وأنعشْتِ نفسي ، ووسّعتِ رزقي ؛ أين أنت يا زمرد ؟ !

نصحتني فلم أتنصحْ : ونهيتني ، فلَمْ أنته ؛ فجررْتُ على نفسِي البَلاء ، وسببْتُ لكِ الشقاء ؛ أين أنت يا زمرد ؟ !

خدعني الماكِرُ الخبيث ، واحتالَ عَليّ ، وأنساني نَصيحتَكِ ، وأغراني بالمال ، قاتل الله المالَ ! فانطلتْ عليّ حيلتُه ، وأطعتُه ، ففقدتُكِ ؛ أين أنت يا زمرد ؟ !

ترك هذا المفتاحَ لأفتحَ عليكِ غرفتَك ؛ وهأنذا أفتحها ، ظناً مني أني سأجدها عامرة بك ، مشرقة بإشراقك ؛ فلم أجد إلا ظلاماً وسكوناً ، وبؤساً وشقاء ؛ أين أنت يا زمرد ؟!

ماذا فعل ذلك الماكرُ الخبيث معك !

أنا أعرفُ حبكِ ، ووفاءك ، وإخلاصَك ؛ فهل يَستطيع هذا الرجلُ أن يسلبَك هذا كله ؟ لا يستطيعُ أن يفعلَ ؛ فإنه سهل هيِّن على اللصوص أن يسرقُوا المال ، وينهبُوا الكنوز ، ويخطفُوا الناس ؛ وليس سهلا هيِّناً أن تُسرقَ القلوب ، وتُنهَبَ العواطف ، ويُغتَصب الحنان ؛ آه ! أين أنت يا زمرد ؟!

ظل عليُّ شار يحدثُ نفسه بمثل هذا الحديث حتى ليخيل لمن يَراه أنه رجلٌ قد ذهب لبه ، وأوشك أن يذهب عقله ، وينمحي إدراكه ،

ذبلَت نضَارته ، والتصقَ جلدُه بعظمِه ، وتجعدتْ أساريرُ وجْهه ، واصفرَّ لونُه ، وبرزت وجنتاه ، وغارت عيناه ، وتحطمَتْ أعصابُه ، وانصرفَ عن الدنيا فلا يَشتهي زاداً ، ولا يَستسيغ طعاماً ، ولا شراباً ؛ وأظلمت الحياةُ في وجْهه ، وضاقَتْ على سعتها ، وأثقلَهُ الهمُّ ، وظلَّ يلح عليه حتى أشرفَ على الهلاك ، وأوشكَ أن يردَ موارد التلفِ .

ولم يكفه ما حلَّ به من غمّ وما نزل بروحه من عذاب ، ولا ما أصاب جسده من وهن — فأراد أن يعذب نفسَه عذاباً جَسدِياً أليماً فوق عذابه ، ويهين نفسه الجريحة إهانة بليغة لعله يكفر شيئاً أو بعضَ شيء عن

جَريرته الكبيرة التى لا تغتفر ، وإساءته البالغة التى أساء بها إلى نَفسِه ، وإلى من أخلصت إليه و نفعته ؛ فماذا فعل ؟

خرجَ هائماً يجوبُ الطرقات ، ويطوفُ الأزقّة مناديًا ، لا يعى من أمره إلا مناداته بين الحين والآخر : يا زمرد !

ثم يشفع قوله بدَقةٍ عنيفةٍ أليمةٍ ينزل بها على صَدره العارى من حجرَيْن يُمسكُ كلا منهما بيد .

وتبعَهُ الأطفالُ ، يَصيحُون عليه ، ويهلّلون من حوله : مَجنون !! مَجنون !!

فكان كل من عرفَهُ يبكِى عليه ، ويتحسّرُ لحاله ، ويتساءل عن عِلّتِه ، وعما حَدَث له .

فإذا ما أتى عليه الليلُ ارتمى على الأرضِ حَيْث يكُون : فى شارِع أو فى زُقاقٍ أو تحت جدَارٍ أو فى الخلاء .

ويعود فى الصباح إلى ما كانَ عليه : يطوف ، وينادى : يا زمرد

يفعل ذلكَ ، وقد أهملَ نفسَه إهمالا شَدِيداً : فاسترْخَتْ لحيتُه ، واغبر شَعرُه وتشعّثَ ، وتهلهل ثوبُه ، وحفيت قدماه ، وزاغَ بَصرُه ، وشردَ عقلُه ، وظهرتْ عليه علاماتُ البلَه والجُنُون .

وفى إحدَى الليالى ساقتْه قدماه إلى بَيتِه فدخَلَه ، وارتَمى فى إحدَى قاعاته ، فرأتْه جارةٌ له عَجُوز طيبَةُ القلب ، فسعت إليهِ وجعلت تربت كتفه بحنان وتقول : يا وَلدِى ؛ متَى حدَثَ لك كل هذا ؟!

فأعرض عنها وأشاحَ بوجهه ، ونثر يديه ، وضرب على صدره ونتش شعره ، وقال : آه يازمرد .

فألحت عليه العجوزُ أن يقصَّ عليها قصتَه لعلها تَستطيعُ أن تَجِدَ له مما أصابه مخرجاً ، فهى سيدةٌ ، تقدمتْ بها السن ، وكَثرتْ تجاربُها فى الحياة ، ومرت على رأسِها بلايا عظام ، فلعلَّ اللهَ يفتحُ عليها ، ويُعينُها على تفريج كرْبهِ ، وإزالةِ الغمة عنه .

سمعَ علىٌّ شار من المرأة العجوز هذا الحديث ، فوقع من نفسِه موقع القَبول والتقدير ، ولـكنه هز رأسه ، ثم اندفع يقول : هاتوا من جُنِنتُ بها وعقَقْتها .

فأخذَت العجوز تطمْئِنُه ، وتعملُ على تهدئَته ، وتحتالُ عليه أن يقصّ قصتَه ، ويَقِفَها على سببِ لجيعته ؛ فلعلّ الله يقدرُها على إعانتِه ، والأخذِ بيده ، وما زالتْ به تحاورُه ، وتداوره ، وتلاطِفُه ، وتربت كَتِفه ، وتمسَحُ شعرَه — حتى خُيلَ إليه أن بارِقةً من نورِ الأمل تَلُوح أمامه ؛ فتحامل على نفسه الضعيفة الواهنة ، وقصَّ على جارَتِه العجوز كلّ قصته ؛ فلما انتهى منها سقَطَ رأسه على صدره ، وانخرط فى بكاء ونحيب فلاطَفَتْه العجوزُ ، وواستْهُ ، وهوَّنت عليه أمره . وقالت له — :

لا تيأسْ يا بنى ، ولا تَبتئس ، إن بعد العُسر يُسرًا ، وسأُدبِّرُ لك أمرًا يخرجك مما أنتَ فيه ، ويجمعُك إن شاء الله بجارِيتك .

فهز علىٌّ شار رأسَه متشككا فى إمكانِ تحقيقِ قولها ، مُستَبعدًا

اجتماعَه بجاريته ؛ فقالت له العجوز :

يا ولدى ؛ لا تحملْ لذلك همًّا ، فإن مَع العسْرِ يُسرًا ، وأَضيقُ الأمورِ إن فكّرتَ أَوسعُه .

— فلما سمع علىٌّ هذا الكلامَ وقال : هَيَّا بِنا .

فقالت العجوز : اصبرْ وما صبرُكَ إلا باللهِ ، وافعل ما آمرُكَ .

قال علىٌّ ، فى يأس : هَاتى ما عندك .

قالت : اخرُجْ إلى السوق ، واشْترِ صُندوقًا من صناديقِ الصاغَة ، واملأْه لى بأنواعٍ من حُلِيٍّ ، دقيق الصنع ، ظريف الشكل ، طريف النقش ، يعجب النساء ، ويروقُهنَّ ؛ وائْتِنى به ؛ وسأَحملُه ، وأطوفُ به على جميع الدورِ فى المدينة ، فإذا رغبَ فيه نساءُ بيتٍ ، أغليتُ الثمنَ ، وبالغتُ فيه ، فلا يشترين ؛ وأظل أَنتقلُ من دربٍ إلى درب ؛ ومن بيتٍ إلى بيت — حتى أَعثُرَ على فتاتك .

فرح علىٌّ شار بفكرتِها ، وتجدَّدَ أملُه ، وانتعشَ قلْبُه ، وأوشك أن يتبدّدَ يأسُه ، فنهض من فورِه خفيفًا نَشيطًا ، يقاومُ ضعفه ، ويجاهدُ علتَه ؛ فذهبَ إلى السوق ، وابتاعَ صُندوقًا جميلا ، وملأَه بأنواع الْحُلِىِّ ، وصنوفِ الجواهر الجميلة الشكل ، الدقيقة الصُّنع ؛ غير ضَنِينٍ فى سبيلِ ذلكَ بالمال .

فلما عاد إلى العجوز ، فتحت الصندوق ، وفحصَتْ ما فيه ، فأعجبهَا إعجابًا ؛ وقالت : هذه فِتنةُ المرأة .

ائتزرَتْ العجوزُ بإزار بائعةٍ ، وحملَتْ الصُّندوقَ ، وتوكأت على عكاز ، وخرجت تطوفُ فى الطرقات . وتطرق الأبواب ، وتدخل البيوتَ ؛ لتعرضَ بضاعتَها ظاهرا ، وتتنسم أخبارَ زمرد .

وظلتْ على ذلك يوماً ، وبعض يوم ، ثم ساقتْها قدماها إلى دار رشيد الدين المجوسِىّ . وما اقتربتْ من بابها حتى تسمَّعتْ ، فسمعت أذناها المرهفتان أنيناً آتياً من مكانٍ بعيد ؛ فوقفتْ تتعرفُ مصدر الأَنين ، فتأكدتْ أنه آتٍ من الدار .

فطرقت البابَ ، وقد حدثتْها نفسُها أن وراء هذا الأَنين شيئاً يمتُّ إلى ما تقصدُ إليه ، وتبحثُ عنه

فتحت لها البابَ جاريةٌ صغيرة السن ، فابتدرتْها العجوزُ قائلة :

يا بنيتى ؛ إن معى حوائجَ جميلة ، تَليق بجميلات النساء ؛ أفلا يوجد هنا من يَبتاعُ منى شيئاً ؟ !

فقالت الجارية : نعم يا أمى ؛ ادخلى حتى أخبرَ الفتياتِ والنساء ، فيحضرْنَ إليك .

فدخلت العجوزُ ، وجلستْ فى وسط الدار ، وأتت جوارى المجوس والتففْنَ حولها ، يشاهدْن بضاعتَها ، ويعجبْنَ بها ؛ وهى تلاطفُهُنَّ ، وتشجِّعهُنَّ على الشراء ، ولا تساومُهن على ثمن . وأُذُناها تنصتُ ، وتتسمَّعُ الأَنين ، وعيناها تبحثانِ عن مكانِه ، فأبصرَتْ فى إحدَى القاعاتِ النائية شبَحاً مُلقى على الأرضِ ، وهو الذى يَصدُر عنه هذا الأَنين.

فشخص بصرُها إلى هذا الشبح ، وتأملته ، فعرفت فيه زمرد ، جارية على شار ، وهى طلبتُها التى تبحثُ عنها .

— فسرت العجوزُ فى نفسها ، وبالغت فى ملاطفةِ الجوارى ومداعبتهن ، حتى لا يلحظن شيئاً ؛ وأخذت تعرضُ بضاعتَها ؛ فتضعُ فى أصبع هذه خاتماً ، وفى رجل تلك خلخالا ، وفى عنق ثالثة عِقداً ، وفى أذنِ رابعة قُرطا ، وفى يد خامسةٍ سواراً . وهكذا ؛ ثم تعرضهُن أمامَ المرآةِ ، وتظهر لهن الإعجابَ بهنّ ، وبفرط جمالِهن ، وحلاوةِ زينتِهن .

فعلتِ العجوزُ هذا كله متعمدةً أن تقترِبَ من مكانِ زمرد

وبذلك أخرجتْ من صندوقِها كل ما لديها من حُلِىّ نادرة طريفة ، واختارت لهنّ ، واخترن لأنفسِهن ، وبالغت فى أنْ تبشّ فى وجوهِهن ، وتتودّد إليهنّ .

فلما رأى الجوارى ما هى عليه من رقّةٍ وظرْف ، وما لها من دُعابة لطيفة . ونادرة طريفة — جاوبنَها فى هذا التودّد . وطلبْنَ منها أن تمكثَ معهُنّ ، حتى يتحلّيْنَ بالحلى أمامَ سيدِهن ، وينظرَ إليهن ، وهىَ عَلَى صُدورِهن ، ونُحورِهن ، وفى معاصِمِهن . فقالت لهن :

— تحليْنَ وتجمَّلنَ كما تشأْنَ ؛ فما أَبْغِى غيرَ مَسرّتكنّ وراحتكنّ ، ولكن ، يا فتياتِى ؛ ما بالُ هذه الصبيةِ الراقدةِ هناكَ تئِنُّ ، ولا تشاركُ فى سُرورِ كُنّ ومرحكُنّ ؟ !

فقلن لها :

يا أماه؛ ليسَ أمرُ هذه الفتاة بيدِنا .

قالت العجوز : وما شأنُها إذَنْ ؟! ـ

قلن : إن سيدَنا هو الذى أمرنا بتقييدِها ، وإلقائِها هكذا ؛ وهو مُسافر الآن .

فقالت العجوز ، وقد تبللتْ عيناها بالدمُوعِ : ويا حَرَّ كبداه ، وهل تسمحُ لكنَّ أنفُسكن — يا بناتى — أن تتركْنَها على هـذهِ الصورةِ البشعَةِ ، وأنتُنَّ اللطيفاتُ ، المرحاتُ ، الجميلات ؟!

— أتطاوعكُن قلوبكُن أنْ ترينَ أُختاً لكنَّ تئِنَّ هـذا الأنين ، وتتوجّع ذٰلك التوجع ؟!

— إن لِيَ عندكُنَّ رجاءً . هو أن تحللنَ وثاقَ هذه الجاريةِ ، حتى إذا قرُبَ وقتُ مجيءِ سيدكُنَّ أعدتنَّ وثاقها ، ولكنَّ ثوابٌ كبيرٌ عند الله .

فقلن : سمعاً وطاعة يا أماه .

ثم سارعْنَ إلى زمرد ، وحللنَ وثاقَها ، وأحضَرْنَ لها الطعامَ والشرابَ اكتساباً لمرضاةِ العجُوزِ .

واقتربت العجُوزُ من زمرد ، تتظاهرُ بتَشجيعها ، ومواساتها وتمسحُ دموعها ، وتربت عَلَى كتفها ، وتلح عليها أن تهدِّئَ نفسَها ، وأن تتناول طعَامَها ، وأن تشاركَ أخواتِها مرحَهُنَّ وسرورهُنَّ ، وهى فى الحقيقَةِ تودُّ أن تبعث فى نفسِها الأملَ بقربِ خَلاصِها من أسْرِها . وعودَتِها إلى سيِّدها .

فلما أسَرَّت العجوزُ لزمرد حقيقةَ أمرِهَا ، وزفَّتْ إليهاَ بُشرَى الفرج ، كادَ قلبُ زمرد يَطيرُ من شدةِ الفرحِ ؛ ولكنها أخْفتْ ذلك في نفسِهاَ ، وأقبلَتْ على طعامِهاَ تلتهمُه التهاماً ، وهي تهمِسُ للعجوز حين مضغِ لقيماتِهاَ بما تُريدُ أن تعرِّفهاَ به وتقِفَها عليه .

— فقالت لها العجُوزُ بصوتٍ خفيض ، بينما الفتيات لاهِياتٌ عنهاَ بانتقاء الحُلى ، والموازنةِ بينهاَ :

إن سيدَكِ على شار سيأْتى إليكِ في هــذه الليلَة ، ويقفُ بجوار مصطَبةِ الدار ، ويَصفِرُ لكِ صفْرَة ، فإذا سمِعته فجاوبيه بمثلِهاَ ، وتدلَّىْ له من الطاقةِ بهذا الحبلِ ، فيأْخذك ، ويَمضى من غير أن يَشعرَ أَحَدٌ .

فشكرتْ لها زمرد جميلَ فعلِها ، وحُسنَ سعْيِهاَ ، ووعَدتْهاَ بأنها ستظَلّ ساهِرَة حتى يأْتِيَ على شار .

جالسَت العجوزُ الجوارِى بعضَ الوقْتِ حتى لا يتنَبّهنَ لمـا فَعلَتْ مع زمرد ، ولمـا أوشَكَ النهارُ أن ينصرمَ — استأذنَتْ في الانصرافِ ، فأَذِنَ الْجوارى لها بعد إلحافِهاَ ، على أن تزورهُنَّ كثيرًا ، لسرورهِنّ بلقائها .

خرجت العجوزُ مسرعةً ، وذهبتْ من فوْرِها إلى على ، وبشَّرَتْهُ بعثورِها على زمرد ، وبما اتفقَتْ عليه معها .

لم يكدْ على يسمعُ هذا الـكَلَام من العجوزِ ، حتى أَخَذَتْهُ دهشةٌ عجيبة ، عقدَتْ لسَانَه بعضَ الوقت ، لأنه ما كان يظنّ أن تلكَ العجوزَ

تستطيعُ بحيلها مهما أُوتيتْ من ذكاءٍ أن تعثُر عَلَى زمرد بهـذه السرعَةِ العجيبة ، ولم يكَدْ يُفيقُ من دهشَته حتى اندفعَ اندفاعاً لا شعوريًّاً ، وانكَبّ يُقبلُ رأسَها ، ويلثمُ يديْها ، ويَقول :

أحقًّا ما تقولين يا أُماه ؟ !

أهِيَ زمرد التي رأيْتِ ؟ !

أهِيَ جاريتي بعينها ؟

اندفع على يَقولُ ذلكَ وغيره ، والعجوزُ تربت عليه ، وتبادِله القُبلات ، فرحةً بفرحِهِ ، مسرورةً لسروره .

أسرعَ علىٌّ بعدَ ذلك إلى الحمامِ واستحَمّ ، ولبسَ ثياباً نظيفَةً ، ونسّقَ هندامَه ، وسَوَّى شاربَه ، وتضمخَ بالطّيب ، وأشرقَ وجهُه ، وفارقَهُ العبُوسُ الذى لزمَه وقتاً طويلا .

وما أقبلَ الليلُ حتى كان واقِفاً بجوارِ مصطبة قصْرِ المجوسى ينتظِرُ حلولَ الوقتِ المتفقِ عليه بينَ العجوز وزمرد .

ولما طالَ عليه الانتظارُ ، جلسَ على المصطبة خائِفاً يترقّبُ .

وكانتْ فكرةُ قرب اجتماعِه بزمرد تبهجُ نفسه ، وكان توقعُ رؤيتهِ لها ثانيةً يسرُّ خاطرَه ، ويشرحُ صدرَه ، وأحسَّ فى جلسَتِه بخَدَرٍ لذيذ يدبُّ فى جَسدِه .

ومن ثَمّ غلبَهُ النومُ الذى كان قد طارَ عنْه مُنذُ أيام .

وما هى إلا لحظة حتى مرّ أمام على شار شخصٌ تبدو على قَسَماتِ

وجْهه علاماتُ الشَّر ، وسماتُ اللصُوصِ والمُجرِمين . فلما أبصرَهُ نائماً تقدَّمَ منه يتفرَّسُه ، ويُمعنُ النظر فيه ، وسره ما رآهُ عليه من الملابِس ذات الجِدةِ والروْنق .

فمد يَده ، وخلعَ عنه عمامتَه ، ولبسَها على رأسِه ؛ وبينما هو يحاولُ أن يستوْلى على شىءٍ آخر ، سمع صفرةً آتيةً من فوقِ رأسِه ، فرفع عينيْهِ فرأى شبحاً فى إحْدَى طاقاتِ القصرِ ، فعرفَ أن هذا الشبحَ هو الذى أرسَل الصفيرَ لسببٍ لا يُدرِكهُ ، فأجابه بصفيرٍ مثْلِه .

وكان الشَّبَحُ هو زمرد ، وكانتْ قد أطلّتْ من الطاقةِ مستبطِئة نداءِ سيدِها ، فرأت شبحًا واقفاً فظنّتْه هو ، فلما أرسَلتْ بصفيرها ، وجاءها جوابُه تيقنَتْ أنه هو ، فأتتْ بحبل العجوز وثبتَتْهُ فى الطاقةِ من أحد طَرفيْهِ ، وربطتْ نفسها فى طَرفِه الآخر ، وتدلّتْ إلى الطريقِ رويْداً ، رويدًا ، وبين طياتِ ملابسها كيسٌ مملوء بالذَهب .

وأدركَ اللص الذى استولَى على عمامةِ على شار أنَّ فى الأمرِ سرًّا ، وأن هذه الصبيّة التى تَتدلَّى على الحبلِ إلى الطريق فى ظلمَةِ الليلِ — ما هى إلا فتَاةٌ تبغِى الفِرارَ مع هذا الشخْصِ النائِم ، وأن صفيرَها ما هو إلا العلامةُ المتفَقُ عليها بينهما .

ففرح بهذا الصّيدِ الثمين الذى سِيقَ إليه عَفْواً .

وما وصلت الفتاةُ إلى الأرضِ حتى حملَها اللصُّ على كتفه ، وأسرعَ يطْوِى بها الطريقَ طيًّا ، وكأنهُ البرقُ الخاطِفُ ، أو سهمٌ اندفع يشق

أَجْواز الفضاء ، وتعجبت الفتاةُ من أمره ، ولم تملكْ نفسَها من أن قالت :

لقد أخبرتْنِي العجوزُ أنك ضعيفٌ عليلٌ بسببِي ، ولكن هأنذا أراكَ على عكْسِ ذلك : قوى البِنْيةِ ، صحيحَ الجسم ، مفتولَ العضلِ : تحملُني وتجرِى وكأنك لم تحمِلْ شيئاً ؛ فهل تجدُنِي أخفَ من ريشِ النّعامِ ؟ ! وأن اللهَ وهبَ لكَ قوةً عظيمةً جعلتْكَ تجرِى هـذا الجرىَ ، وتسرعُ ذلك الإسْراع ؟ !

فلم يرد الرجُلُ عليها جواباً ؛ بل ظلّ يجرِى بها دونَ توقّفٍ أو راحَة ، وكأن أبالسة الأرضِ تطاردُه ، فتحيرَتْ زمرد فى أمره ، واسترابَتْ . فمدتْ يدها تتحسّسُ وجْهَه ، فصدمتها لحيةٌ كثةٌ خشنةُ الملمس ، فزعتْ لها نفسُها ، وارتعبَ قلبُها :

فقالت بصوتٍ متهدّج ذايل ، متقطِع النّبَرَات :

يا هذا ؛ من أنْتَ ؟ !

فرد عليها ردًا سَاخِراً بصوتٍ خَشنٍ أجَشّ :

أنا جوان الكرْدِى .

قالت ؛ وقد ازدادَتْ رُعْباً — : ومن تكون ؟ !

قال : أنا شاطِرٌ ، من جماعة أحمد الدّنف الذين يبلغُون الأربَعين .

قالت : وما الذى جعلكَ تأخذُنِى ؟ ! وإلى أيْنَ تسيرُ بِى ؟ !

قال : لقد هبطْتُ أنا وزملائى إلى هذهِ المدينةِ اليومَ ، وطلبْتُ إليهم أن ينزلُوا ضُيوفاً علىّ فى الليلةِ القادِمَة ، فقبلوا الضيافَةَ ؛ وأنا أقيمُ فى

غارٍ خارج المدينة ، ومعي أُمِّي . وقد خرجْتُ أسعى إلى صَيدٍ ثمين أنفقُ منه على ضُيوفي ، فساقَني حظِّي السعيد إلى القصرِ الذي عَثرتُ عليكِ فيه ، فدرْتُ حوله ألتمسُ منفذاً أنفذ منه ؛ فلقيتُكِ أنت ، وما تحملينَ معك ، لقية سهلة سائغة ، فسأستَعينُ بما تحملينَ على نفقاتنا ، وسأستَعينُ بك على خِدمةِ ضُيوفي ، وقضاء حاجتهم .

فلما سمعت زمردُ هذا الكلامَ من اللصِّ انفجرتْ تبكي وتنتحِبُ ، وتندبُ سوء حظها ، وظلامَ مَصيرِها ، وهي تقولُ لنفسها — : لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . ما نجوْتُ من مُصيبةٍ إلا لأقعَ في أسْوأَ منها ، وما خلصْتُ من شَرّ إلاّ إِلَى شَرّ منه .

ولم تكف زمردُ عن إرسالِ العبراتِ إلى أن وصلَ بها اللصُّ إلى الغارِ ، وأدخلَها إلى أمِّه ، وقال لها :

احتفِظِي أيضاً بهذِ الجاريةِ ، وهذا المال ، حتى أَعودَ إليكِ في بُكرةِ النهار .

فقالت الأم : سَمعاً وطاعَة يا ولدي ، فتحَ اللهُ عليكَ ووسّعَ رزقَك .

وخرجَ اللصُّ من الغارِ ، وتركَ زمرد التي كانَتْ ما تزالُ تبكِي ، مع أمّه

وعند ما بزغَ نور الفجرِ كانت الأمُّ العجوز قد أضناها السهرُ ، وأزْعَجَها بكاء زمرد ، وشدةُ نحيبها ؛ فقالتْ لها :

ما بالُكِ لا تكفِينَ عن البكاء يا بُنَية ؟ !

فقالت زمرد، وقد توسَّمَتْ في العجوزِ بعضَ الخير :

وكيفَ لا أبكِي ؟ وأنا لا أدرِي ما يُرادُ بي ، ولا إلى أي مصيرٍ أنا مسوقة ؟!

فقالت العجوز : إنه لا يُجديك نَفْعاً ، فكُفِّي عنه ، وحاولِي أن تنامِي قليلا ، وخُذِي هذه الملابسَ ، فتوسدِيها تحت رأسِك .

فنظرتْ زمرد إلى الملابسِ التي دفعَتْها إليها العجوز ، فوجدتْها تُشْبِهُ أن تكونَ ملابس أحد الجُنود .

فقالت : ملابسُ من هذِه ؟

فقالت المرأة : لقد أحضرها ولدِي مع هذا الحصان المربوطِ في الخارج ، وطلبَ منِّي حفظ الملابسِ والحصان ، حتى يعود في ضحوةِ النّهار .

فقالت زمرد في حَسرةٍ وانكسار : كما طلبَ منكِ أن تحتفِظي بي أيضاً !!

أجابت المرأة : نعم .

فقالت زمرد : إنني لا أبغِي نوماً ، فهيا بِنَا إلى خارجِ الغارِ ، حتى نَسْتَمتِعَ بضوء الشمسِ ودِفئها ، فإنها أوشكَتْ أن تُشْرِق .

فوافقتْها العجوزُ على رأيِها وخرجتاَ من الغار ، فأبصرَتْ زمرد الجَوادَ ، معقولًا على بابِه ، وعلى بُعْد لمحتْ جسدَ شخصٍ قتيل مُلقًى ، فأدركتْ أنه هو صاحبُ الملابس والجواد ، وقد قتله جوان المجرم ، فاشمأزّتْ

نفسها ، ووجِلَ قلبُها ، وَعَمِلَتْ على تدبيرِ خطَّةٍ تفرُّ بها من العجوز قبل أن يأتىَ ولدُها جوان الشَّقِىّ .

فقالت للعجوز : ألا تأتِى يا أُمى حتى أمشطَ شعرَكِ ، وأنظِّفَ رأسَكِ وأفلّيَه .

فقالت العجوز : أى والله يا بنيّتى ، فإن لى مدةً طويلةً لم تَطأْ رِجلى فيها أرضَ حمّام . فإن هؤلاء الملاعين لا يكُفّون عن الطوافِ بى من مكان إلى مكان .

وأسلمتْ رأسَها إلى زمرد ، فوسَّدتْها فخذَها ، وجعلتْ تفلِّى شعرَها ، وتمسحُ برفقٍ على جلدها ، وتغنِّى لها ؛ وصادَفَ أن الجوّ كان جميلا ، وأن النسيمَ كان رقيقاً ؛ فاستلذت المرأةُ بذلك كله ، وارتاحتْ له ، ولم تلبث أن غلبها النومُ فنامت .

فأرقدَتْها زمرد على الأرضِ برفق خوفاً من أن تستَيْقظ ، وأسرعَتْ إلى ملابسِ الجندى فلبستْها . وتقلّدتْ سيفَه ، وتعممت بعمامَته ، وأخذتْ كيسَ الذهب ؛ وامتطت الجوادَ وسارتْ به . فصارَتْ لا تخطئُ العينُ فى أنها رَجُل .

ولكنها مع ذلكَ أحجمت عن الرجوعِ إلى طَريق المدينَةِ خوفاً من أن يراها جوان الكردى ، فيفطنَ إلى أمرِها ، أو أن يراها أهلُ الجندى صاحبِ الملابسِ والحصان ، فَيفتضِح أَمرُها وتَسُوء عاقبتُها ، وتؤخذَ بجريمة جِوان فى قتل الجندى . فولّتْ وجْهها نحوَ طريقٍ آخر ،

واسْتحثَّت الجوادَ في السير ، لتقطعَ مرحلةً يشقُّ على من يُطاردُها اقتِفاء أثرِها فيها

(٣)

أخذت زمرد تدب في صَحراءَ موحَشةٍ قاحِلة ، كلما تقدمتْ فيها لا تَجِدُ إلا البرارى التى لا ينتهى الطرفُ إلى مَداها ، والبطاح الواسعة التى تضل الأَدلاء فيها ، لا يصادفها بها نبات تتغذَّى هى وحصانها منه ، ولا ماء لِشُرْبهما ، فعضَّهما الجوعُ ، وكاد العطش يلهبُ أحشاءهما ، وأدركَتْ ألاّ نجاة من الهلاك .

فأرخَتْ لجوادِها العِنان ، وتركتْه يَمشى فى تلك المتاوه من غَير قيادَةٍ فلمْ توجهه يميناً أو شمالاً ، ولـكن أسلمَتْ أمرها لله ، وجعلت جوادَها يختار لها ، فقد يكونُ ذلك سبباً فى نجاتِها ، وتخْليصِها من هلاكٍ مُحَقق ، وكان أَملُها فى النَّجاة عظيما ، لأنها خَيّرةٌ نافعة ، والخيِّرُون النافعون يخلصهُم الله مما عَسَى أن يَقعُوا فيه من مَكْروه .

سار الجواد بزمرد لا تهديه إلا حاسّتُه ، ولا يرشدُه إلا حاجتُه إلى الارتوَاء ، وبعد وقت عَصِيب مَرّ بزمرد ، لا تَدرى أطالَ بها أمْ قَصُر — أَبصرَتْ من خلالِ أجفانِها المنـكسرة منطقةً خضراء تلوحُ أمامها . نشِطت ، وهمَّت ، ورفعتْ رأسَها ، وشخصتْ ببَصَرِها إلى تلكَ الخضرة الجميلة ، بعد أن حرمت — بعض الزمن — رُؤْيَةَ كل شىء ، إلا رؤية

الأرضِ القاحلةِ الجرداء ، وكانت كلما قرُبت من الوادى ، تأكّد لها أنه وَادٍ عامر ، فأسرعَتْ فى الانتهاء إليه .

وصلتْ إلى جنة الصحْراء ! فرأت مساحةً بها ثمارٌ وماء ، ما أجمَلها فى عين زمرد ! وما أبهجها فى نَفسِها بعد ما عَانَتْ وقاسَتْ ، واحتملَتْ ! !

أكبت على الماء تُرْوى ظَمأها ، وتُطفئ نار عطشِها ، وكذلك فعل جوادُها : وضع فمه فى قَناةِ الماء ، وأخذ يعبُّ حتى امتلأ . ثم انصرفتْ زمرد بعد ذلك ، ومعها جوادُها إلى ما فى تلك الجنة من ثمر وعُشب ، فأكلت هى من الثمر حتى شبعت ، ورَعَى جوادُها العشبَ حتى امتلأ .

وبعد الراحةِ والاستجْمَامِ ، والتزوّدِ بالزاد — استأنفتْ زمردُ الرحيلَ ، تاركةً لجوادِها الخِيارَ فى اختيار الطريق الذى يُريد فلعلّه يصِلُ إلى جنةٍ أُخرى ، تجِدُ فيها ناساً تطمئِنّ إليهم ، ويطمئنُّون إليها ، فتستطيعُ أن تدبرَ لها حياةً معهم أو أن تَعودَ بمعاونتهم إلى بلدِها وسَيّدها .

وسلكَ الحصانُ طريقاً مأموناً مأمولا ، انتهَى بها بعد أيام قَليلة إلى ظَاهرِ مدينةٍ كبيرة ، يحيطُ بها سورٌ متين البنيانِ ، فلما قربَتْ زمرد من باب المدينة رأته يحتَشدُ أمامَه خلقٌ كثير تدل هيئتهم على أنهم من ذَوِى المكانَةِ فيها . كما رأتْ عددًا كبيرا من الجُنودِ مصطفّين على جانبَى الباب .

فحدثتْها نفسُها قائلة :

يا ترى! ما مآلُكِ فى هذا البلَد؟! وهَلْ يقبلُكِ به هؤلاء القومُ المنتظرون

أو هم سيَحُولون بينك وبين دُخولها؟! وما سِرُّ تجمعهم هذا ، وتَطلعِهمْ جميعاً إلى ناحيَتك ؟!

وما كان أشدَّ دهشتَها ، وأبلغ عجبها ، حينما أبصرت الجنُودَ يحيُّونَها ، ويتسابَقُون إليها ؛ ثم يترجَّلُون عن خُيولهم ؛ ويُقبلونَ الأرضَ بينَ يَديْها ، هاتفِين :

أللهُ ناصرُكَ يامولانا السلطان !!

ثم ماكان أَعظمَ حيرتَها ، حينما التفَّ حولَها جماعةُ المستقْبلين ، وهم جميعاً فى زِىِّ الأُمراء ، والوزَراء ، وأكابرِ رجال الدّولَةِ ؛ يقدّمُون إليها آياتِ التبجيلِ ، وواجبَ الولاء ، ويلقبونَها بالسلطان .

ونادَى الجنودُ فى الناسِ ؛ يُعلنُون قدومَ السُّلطانِ ، ويقدمونَهم له ، فيمرُّون أمامَهُ فى خُشوعٍ وخضوع ، طالبين له التأْييدَ ، دَاعينَ له بالنَّصر والتوفيق

ونفضت زمردُ عنها وَجَلَها ، واستمسكَتْ ، وقويتْ ، وملكتْ قلبها ، وأذهبَتْ عن نَفسِها كلَّ مظاهرِ الدّهشةِ والحيْرةِ والاضْطرابِ ، ووقفتْ خطيبةً فى هؤلاء الناس ، وقالت لهم :

ـــ ما خبرُكم يا أهْلَ هذه المدينة ؟! وما شأنُكمْ ؟!

فقال كبيرٌ مقدمٌ فيهم لقد أَعطاكَ من لا يبخَلُ بالعطاء ، فجعلكَ سلطاناً على هَذِه المدينَةِ ، وحاكماً على رقابِ من فيها . فاعْلم أنَّ من عادَةِ أهل هذه المدينةِ أنه إذا ماتَ مِلكُهم ، ولم يكن له ولدٌ ـــ تَخرجُ

العساكر إلى ظاهرِ المدينة ، ويمكثون ثلاثةَ أيام ، فأىُّ إنسانٍ جاء من طريقك الذى جئت منه يجعلونه سلطاناً عليهم . والحمدُ لله الذى ساقَ لنا إنساناً جميلاً ، ظريفاً ، مثلكَ ، تدل هيئَتُه على كَرَمِ الأصلِ ، ويحدثُ مخبرهُ عن طيبِ العنْصرِ . ولو جاء من هو أقلُّ منكَ شأناً ، لكنا نصبناه علينا سُلطاناً .

وما عرفتْ زمردُ منهم هذا ، حتى استردَّتْ شجاعتها ، واستحضرتْ حصافَتَها ، وسرعَةَ بَديهتهـا ، وعوّلتْ على مسايَرةِ القومِ فى اعتقادِهِم أنها رَجُل ، ورضيَتْ لنفسِها أن تنصب سُلطاناً ، وتلبسَ ثياب الملك : تحكُم ، وتولِّى ، وتعزِل ، وتأمُر ، وتَنْهى ، وتقُود الجيوش ، وتسن القوانين وتفعلُ كل ما يفعلُه الملوكُ الذين أُطلقَت أَيديهم فى حكمِ تلكِ المدينة .

— ولما استقر رأْيُها على ذلك توجهتْ إلى القومِ ، ووقفَتْ تعظم نفسَها ، وترفَعُ من قدرها ، لتلقِىَ الرعبَ فى قلوبهم ، وتجعلهم يخشَوْنها . ويحسبُون لها حساباً كبيراً ، وكان مما قالته :

— نعم إننى لستُ من أولادِ العامّةِ والسُّوقة . بل إنى من أَولادِ الأمراء ، ومن سلالة الملوكِ ، ويجرى فى عُروقِى دَمُ الحكام الأشدّاء الذين يتولَّوْن ، ويَعْدِلون فيمن يَستحقُّون العدْلَ ، ويضربُون بيدٍ من حَديد على كلٍّ من تُحدثه نفسُه بالعصيان ، أو التمرُّد ، أو الخروجِ على القانون ، وإنَّ آبائِى وأَجدادِى كانوا فى سلطانهم لا يعرفُونَ فى الحقِّ هوادَةً ، وكانوا

إذا بطَشُوا بطَشُوا جبارين ، وأنا مِنْ سلالةِ هَؤلاءِ القوم : رأيت أَبى وإخوتِى تجاوزُوا حد الاعتدَالِ فى البطْشِ بالأبرياء فى ممالِكِهم ، فلم يُرضِنِى هذا مِنهم ، ورأيت أن العدلَ ، والشفقةَ ، والرحمة ، والبرَّ بالفقراء ، ورعاية اليتامى، ومعالجة المرضى، وتعليم الجهال رأيت هذا وغيره من الأمور التى يجب أن يتحلى بها ذوو السلطان ، الملكون فى الناس لأن اللهَ سبحانه وتعالى لم يملكهم إلا ليعدلُوا بين عبادِه ، ويسهَرُوا على راحتهم . وقد ساقنى الله إلى بلدكم لتولّى أموره ، وتصريفِ شئُونه وأتيتُ بهذا المال الكثير ، الذى ترون البقيةَ الباقيةَ منه على ظهرِ جوادى ، وكنتُ كلما قابلَنى أحدٌ فى طريقِ إليكم من الفُقراء والمحتاجين ، واليتامى والأرامل — نفحتُه بَدرة من المال ، يَستعينُ بها على زمانه ، حتى أدَبّرَ له مرتزقاً يكسبُ منه رزقه .

فازداد سرُورُ القوم بها ، وأحسُّوا أَنهم سيشْهدُون لَوناً جديداً من الحكْم ، لم يَرَوْهُ هم ولا غيرهم من قبل ، ودعَوْها إلى السيرِ معهُم إلى داخل المدينة ووصلُوا بها إلى قصرٍ مُنيفٍ ، واسِع الرحَبات ، وحملها الأُمراء حتى أَجلسوها على كرسى العرشِ .

— فنظرت زمردُ حولها ، وقد أخذتها رهْبةٌ وَهَيْبَةٌ ، وتمتمتْ تقول لنفسِها :

يا ربى ، أعِنّى على ما وضَعتُ نفسِى فيه مُسيّرةً لا مُخيّرة ، ولا تفضحْ لى أمراً ، ويسر لى اجتماعِى بسَيدِى على شار ، فقد أستطيعُ مستعينةً بما

هيأ الله لى من مُلك وسلطان — أن أحتال على لِقاء سيدى ، ومن يَدرى فقد أستطيعُ أيضاً أن أهيئ له ذلك الملك ، فيكونَ حاكماً بأمره فيه ؛ وإن لم يكُنْ ذلك فلأفر أنا وهو لنَعيشَ سعيدَيْن هانِئَيْن بقيةَ عُمرنا ! !

ثم لم تلبَثْ أن استجمَعَت أمرَها ، وقوّت من رُوحها ، لتنظر فى شئون الملك التى أُلقيتْ كرْهاً على عاتقها . فأمرتْ بفتْح خزائنِ المال ، وإحصاء ما فيها ، ووزعت على العسكرِ هباتٍ سَخية ، ففرِحُوا بالسلطان الجديد ، ودَعوْا له بالخير ، وتمنوا أن يدومَ ملكُه ، ما دام يَرعاهُم برعايته ، ويُعنى بشئُونهم عنايته بنفْسه .

واستمرتْ زمُرُّدُ تحكُم بين الناسِ بالقِسْطاسِ المستَقيم ، سنةً كاملة ، لا تبغى غير راحَةِ أهلِ المدينة ، ولا تنشدُ غيرَ رفاهيتهم ، وانتشارِ الأمن والسلام بين رُبُوعِهم ، وكانت حريصةً على إخفاء أمرها ، والاحتفاظ بسرِّها ، ما أمكنها ؛ مُتعللةً بيوم قريبٍ يسوقُ اللهُ لها فيه سيدَها على شار فتحتال على أن توليَهُ الملك ، أو تتركَهُ وتترك هؤلاء القوم ، الذين بايَعُوها ، وَملكُوها ، ولبثَتْ فيهم نقيةَ اليد طاهرةَ الذيلِ ، عَفيفةَ اللسان .

ابتعدت عنْ مقصوراتِ الجوارى والسرارى ، ورتّبتْ لهنّ الرواتِبَ ، والجرايات لإرضائهن ، وأفردَتْ لنفسِها صومعة بحجة العكُوفِ فيها على التبتّلِ والعبادة ، لا يقومُ بخدمتها فيها غير غلامَيْن صغيرين .

ولكن انتظارَها طالَ ، ولم تسمعْ لعلِى شار اسماً ، ولا خبَرا ، فنفِد صَبرُها ، وقَلقتْ ، واستبد بها القلَق ، وفكرتْ فى تدبيرِ

أمرٍ عساه يأتيها بخبر ، أو نبأٍ يقين .

فأصدرت أمرَها بإنشاء مَيدانٍ فسيحٍ فى جانبِ القصر : طوله فرسخٌ ، وعرضه فرسخ ، فاهتمّ المهندسون بإنشائه ، ولما أتمّوه على حسَبِ رغبتها ، أعدّت لنفسِها مجلساً فى صدره ، وأمرت بنحر الذبائح ، وطهيها ، وإعدادِ سِماطٍ كبير حوى ما لذَّ وطاب من المآكل . ثم أمرت بالمناداة فى المدينةِ على أنه لا يبقَى فيها رجل ، أو شاب ، أو غلامٌ ؛ ولكنهم يأتون جميعاً للأكل من سماط السلطان .

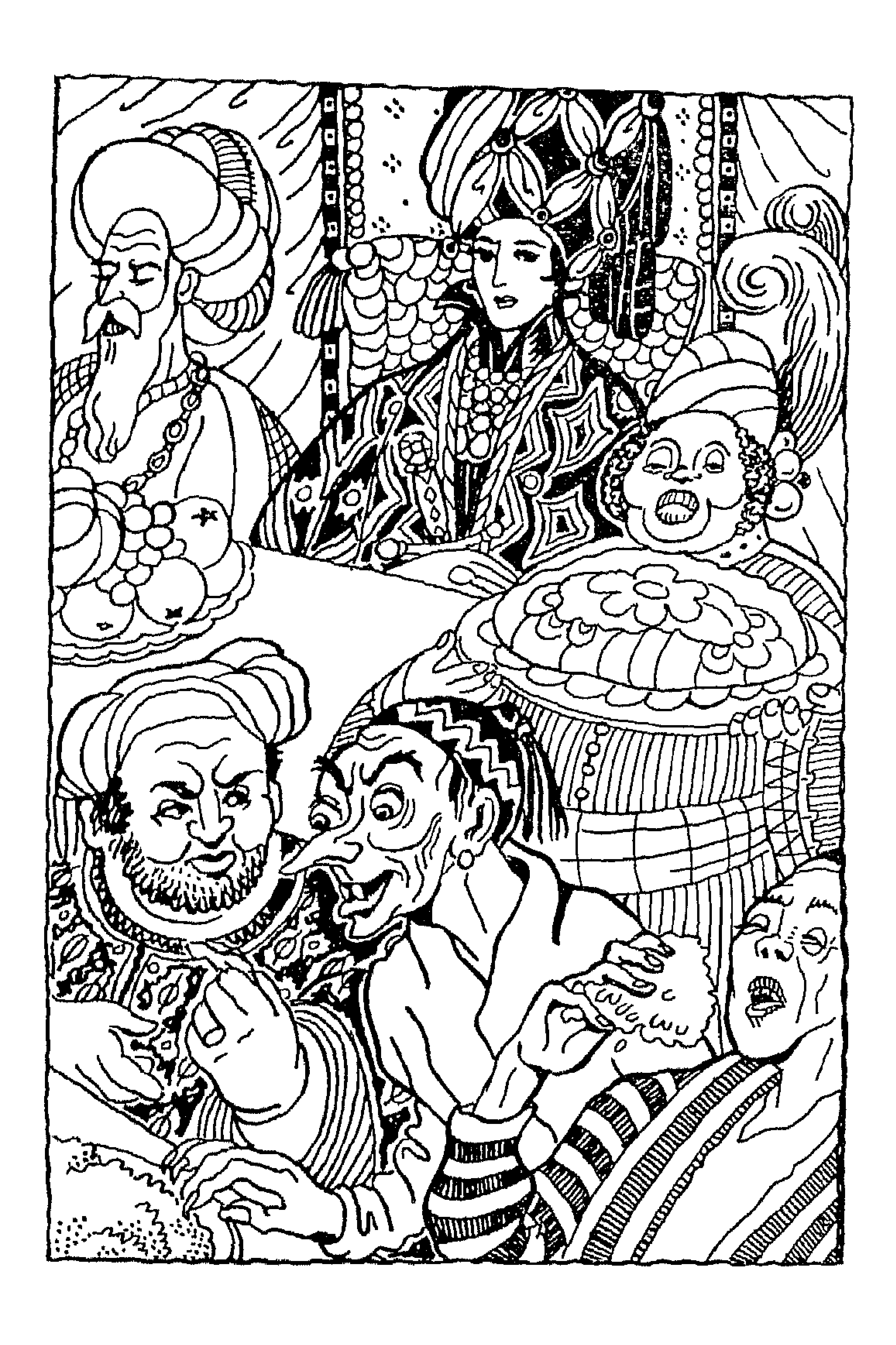
ففرح الناسُ ، وهبُّوا جميعاً يَسيرون أَفْواجاً وجماعات إلى الميدانِ الجديد ، المجاور للقصرِ حيث مدالسماط ، وأعد للوافدين على الميدان نظامٌ خاص : فهم يدخلون بترتيب ، ونظامٍ مَرْسوم ؛ ويتخذ كلٌّ منهم مجلسَه أمام الطعام ، والسلطان جالسٌ فى صدر المكانِ ، شاخصُ البصر نحو الباب يتصفَّح وجوهَ الداخلين .

فلما فرغ القومُ من تناولِ الطعام ، قال لهم أَحدُ أعوان السلطان :

إن السلطان يأمرُكم بالمجىء إلى هنا إذا ما هلَّ هلال كلِّ شهرٍ للأكل من مثل هذا السماط وإياكُمْ أن تتَخلَّفُوا .

فقالوا : سمعاً ، وطاعة ، ودعَوْا للسلطان بالعزِّ والتأييدِ ، وتمنَّوْا على الله أن يَدُوم عليهم حكمهُ ؛ فهم يُحبونَه من قلوبهم ، لعطفهِ عليهم ، وَرِفْقِه بهم ، وسهره على رعاية مصالحهم .

ومرت الأشهر ، وفى هلال كل شهر يمد سماطُ السلطان ، ويجتمع عليه



الناسُ ، وهم فرحون ، فيأكُلون ما شاءوا أن يأكلوا ، ثم يسمرونَ ما شاءوا أن يَسمروا ؛ ويظلون كذلك حتى يأذَنَ لهم الملكُ بالانصراف .

يحدث ذلك كله والملك (زمرد) جالسٌ على منصة عالية ، يتصفّح وجوهَ الناس لعله يجدُ ضالتَه بينهم ، ولكنه لم يَجِدْها ؛ ولكنه لم ييأس لأن شوق زمرد إلى لقاء عَلِيّ جَعَلَها تتوقعُ العثور عليه فى هذه المدينة وظنت أنه قد يتخلف عن السماط مع المتخلفين فأرسلت منادياً ينادى فى المدينة :

يا معشر الناس، كلُّ من فتحَ دكانه ، أو متجرَه ، أو تخلَّفَ فى منزله عن سماط الملك غَضِبَ عليه ، وأنزلَ سخطه به . وعاقبه أشدّ العقاب ، سواء أكانَ من أهل المدينة أم من الغرباء ، وسيرقب الملك الحال بنفسه ، وعن يَصطفيه من أَعوانه ، الذين سيفتِّشُون فى كل متجر ، وفى كل دَرب وفى كلّ حارة ، بل فى كل بيت ؛ فإذا عثر على متخَلِّف حَقَّ عليه العقاب .

فلماهلّ الشهرُ الجديد ، ومُدّ السماطُ ، أقبل الناسُ جميعاً إليه مُهرولين ، وما تخلفَ منهم أَحد ؛ وجلسُوا يأكلون وزمرد تنظرُ إليهم ، متصفحة وجوهَهم وجهاً وجهاً ؛ وكلُّ واحد منهم يشعر بنظراتها إليه ، ويظن أنها لا تحولُ وجههَا عنه ، فيقول لنفسه : إن الملك لا ينظر إلا إلىَّ .

وبينما زمرد تتأملُ وجوهَ الوافدِين ، أبصرتْ برسومَ المجوسىَّ ، الذى أخذَها مع أخيه من منزلِ سَيدِها ، فعرفتْه ، فتنهدتْ تنهدة الراحة التى نزلتْ برداً على قَلْبها ، فقد مكنها اللهُ من عدوها ، ووضعتْ يدها على

أول الخيطِ الذى سيصلُها بسيدها ؛ وقالت فى نفسها :

هذا بابُ الفرج .

ورأت برسوم يتقدّمُ ، ويجلسُ مع الناسِ للأكل ، فنظر إلى قصعةٍ كبيرة من حلوى الأرز ، وهى مصنوعة من أرز مَلبون فى السكر مدفون ، مُزَيّن بمطحون الفستق — وكانت بعيدةً عنه — فزحم مَن بجانبه ، ومدَّ يده ، فأخذها ، ووضعها أمامَه ، فقال له الرجل الذى بجانبه :

لم لا تأكُل مما أمامك ؟ أليس هذا العملُ بِشائنٍ لك ؟ ألا تَخشَى أن يَصِفَك الناس أنك رجلٌ شره لا تحب إلا نفسك ؟ ! ألا تخشى أن تكون عينُ الملك واقفةً عليك الآن ، فتؤلمه أنانيتك ، وإيثارك نفسك بأشهى الطعام ؟ !

فقال — : لن آكل إلا منه .

فقال الرجل — : كل : وأنتَ وشأنك : لا هنأك الله به .

فقال رجل آخر يبدو عليه الفقرُ : دعه يأكُل منه ، حتى آكل أنا الآخر منه .

فقال برسوم : ياأخسَ الخلق : إن هذا ليسَ بمأكولكُم ، وإنما هو مأكول الأمراء فاتركوه حتى يأكل منه من هُمْ أهلٌ له

ثم مد يدَه إلى الطبق ، وأخذ منه لُقْمة ، ووضعها فى فَمِه ؛ وأراد أن يأخذَ الثانية ، فصاح الملكُ فى الجند :

ائتونى بهذا الرجُل الذى يأكُل من طبق الأُرز الحلو ، ولا تدعُوه يأكل ما فى يده .

— فهجم الجنودُ على برسوم ، وسحبُوه على وجهه سحباً عنيفاً ، ونصبوه أمام الملك بعد أن ألقوْا باللقمةِ من يده . دهشَ النـاس ، وسكَتُوا ، وسكنُوا كأن على رءوسهم الطير وكفوا عن تناولِ الطعام ، وأخذوا ينظرُون مايفعلُه الملِكُ ؛ وأخذ يقول بعضهم لبعضٍ : والله إن هذا الرجل لظالم ، حيث لم يقنَعْ بما أمامه من الطعامِ وَمَدَّ عينيه إلى الطعامِ الذى أمام غيره .

فقال رجل كان مجلسُه بالقربِ من مجلس برسوم :

لقد قنعت أنا بهذا الـكِشك الذى كانَ أمامى .

وقال الفقير الذى كان يتمنّى أن يأكلَ من حلوى الأرز : الحمدُ للهِ إننى لمْ آكلْ منه شيئاً .

ولما مثل برسوم المجوسىُّ بينَ يَدىْ زمرد ، قالت له :

ويلَكَ يا رجل ! ما اسْمُك ؟ !

وما سببُ قدومكَ إلى بلادِنا ؟ !

فأنكر الرجلُ شخصيته وقال : يا ملك الزمان ؛ اسْمِى علىّ ، وصناعَتِى حائك وجئت إلى هذه المدينةِ من أجل التجارَة .

فقالت زمرد لحجابِها : ائتونى بتختِ رملٍ ، وقلمٍ من نحاس .

فجىء بما طلبتْه فى الحال .

فتناولت القلمَ ، وأخذت تخطُّ به فى تخت الرمل ؛ ثم رسمتْ به صورة مثل صورة القردِ ، ورفعتْ رأسَها تتأمل فى برسوم وقتاً طويلا ، وقالت له :

— ياوقح ، كيف تكذبُ على الملوكِ ؟!

أمَّا أنت فمجوسِيٌّ ، واسمُك برسُوم ، وقد أتيتَ لحاجةٍ تبحثُ عنها ؟!

اصدقنى الخبرَ ، وإن لم تفعلْ فلأضربن عُنُقَك على ملأٍ من أهل مملكتى جميعاً .

فارتبكَ برسوم ، وأُرتِجَ عليه ، وتلجلَجَ ، وانعقد لسانُه ، ولم يستطع أن ينطِقَ حرفاً واحداً .

ودهش الحاضرُون من عِظمِ مقدرةِ الملك ، وتملكهُم العجب ، وصمتوا جميعاً يتطلعُون إلى ما سينتهى إليه الأمر ، فسمعوا الملك يهيبُ بالمجوسى متهدِّدًا ، متوعدًا :

اصدقنى الخبر قبل أن أهلِكك .

فقال المجوسىّ بصوت مختَنِقٍ ، وكان جسمُهُ يرتعدُ خوفاً :

العفوَ والمغفرةَ يا ملك الزمان ، إنك صادِقٌ فى ضرب الرمل . . فإنى مجوسِىٌّ ولستُ على دِينِ أهلِ هذه المدينة .

فما بَقِى فى الحاضرين أَحدٌ إلاوقد بُهِتَ . وازدادَ تقديرُهم لملكِهم ، واشتد تهيبُهم له ، وخوفهم منه ، واحترامهم إياه .

وأخذوا يرددون بإعجاب وخشوع :

إن هذا الملكَ منجمٌ عارف ، يحذقُ علم النجوم ، ويجيد ضربَ الرمل فلا يوجد فى العالم مثله !

وأصدر الملك حكْمَه على المجوسىّ ، بأن يُسلَخ جلدهُ ، ويُحشى تبناً ، ويعلَّقَ على باب المدينة ، وأن تحفرَ حفرة خارجَ المدينة يحرق لحْمُه وعظْمُه فيها ، وأمر جنده أن ينفذُوا حكمه على عجل .

فقالوا : سمعاً وطاعة .

وأخذوا المجوسِىّ ، وكبوه على وَجهِهِ ، وذبحُوه من قفاه ، ثم سلَخوا جلدَه ، وحشوه تبناً ، وصنعُوا منه بوًّا ، وعلقُوه على باب المدينة ؛ ثم جروا لحمَه وعظمه ، وخرجوا به إلى ظاهِر المدينة ، وجمعوا حَطَباً ، وأوقدُوا ناراً ، وألقوْا فيها لحم المجوسىّ وعظمَه ، حتى إذا أُحرِقَ وذرى فى الهواء ، انفض الناس ولا حديث لهم إلا المجوسىّ وما حدث له . فمن قائل :

إنّ جزاء هذا المجوسىّ قد حَلّ به ، وهو يستحقُّه ، لأنه دَخل مدينَتَنا من غير أن يُؤْذنَ له ، ولأنه كذَب على الملكِ ؛ وإذا كان الكذبُ شنيعاً بشعاً على النّاسِ بعضِهم وبعض ، فهو أشدُّ بشاعةً وشناعةً إذا كان على الملوكِ والحكام ، وأولى الأَمْر ، لأن الكذبَ عليهم غشٌّ لهم ، ومخادعة ، وقد يترتبُ على ذلك أمورٌ خطيرة ، لا ينْتهى ضررُها عند المُلوكِ وحدهم ، فقد يمتدُّ ذلك إلى رَعاياهم ، فيصيبهم

ما يصيبُهم فى معاشهم ومَعادِهم ، ولا ذَنبَ لهم إلا أن رَجُلاً كذبَ على الملك فغشَّه وخدعَه .

ومن قائل :

ما كان أشأَمها لقمة ! وما كانَ ضَركَ أيها الرجلُ لو قنعتَ بما أمامك ، وأكلتَ مما تحتَ يدك ؟ وما كان ضرَّكَ لو تأدَّبتَ مع الناس فجعلتهم يشاركونَكَ فى طَبَق الحلوى الذى اغتصَبْتَه من موضعه ، ونقلتَه أمامَك !

وما كانَ أجمل أن تقُدرَ أنكَ غريبٌ ديناً ، وأنك غريب وَطَناً ، فلا أقل من أنكَ تحسِنُ معاملةَ الناس ، وتَتَودَّد إليهم لتستطيعَ أن تنتَفِعَ بهم ، وتستعينَ بمعرفتهم .

ومن قائل :

لقد عاهدْتُ نفسى أَلا أذوقَ أُرزًا ملْبونا ، فى السكر مدفونا ، ما دُمتُ حيًّا ؛ فقد يصيبُنى منه ما أصابَ ذلك الرجلَ الغريبَ الكذاب .

وقال الفقير :

الحمدُ لله الذى عافَانِى مما حلَّ به ، حيث حَفِظنى من أَكلِ ذلك الأرز المشئوم .

ولما كان الشهرُ الجديد ، مد السماط عَلَى جرى العادةِ ، وصفَّتْ فوقه الأطباقُ فى نظامٍ بديع ، وتنسيقٍ جميل ، وأقبل الناسُ يتخذونَ

مجالسَهم ، وهم يسارقون النظرَ إلى طبقِ الأُرز ، فإذا هو فى مكانه ، فصاروا يتجنَّبون الجُلوسَ أمامه ، وينصَحُ بعضهم بعضاً بعدم الاقتراب منه .

— حدث كل ذلك ، وزمرد تتبوأ مكانَها فى صَدرِ المجلس .

وبينما هم يأكلون فى احتراسٍ ، وينظرونَ إلى طبق الأُرز فى خِيفَةٍ وتوجُّس ، كانت زمرد تنظرُ إليهم ، فأَبصرت شخْصاً يهرولُ داخلاً من بابِ الميدان . فما وَقعَ نظرها عليه حتى عرفَتْ فيه اللصّ جوان الكرديّ الذى اختطفها وفرّتْ منه ، فتمتمتْ تقول فى نفسِها : وأنتَ أيضاً قد ساقَكَ الله إلىّ ، ليمكنَنى منكَ ، ويضع رقبتكَ فى يدى .

والذى ساق جوان إلى مدينة زمرد . هو أنه لما تركَها مع أُمه ذَهب إلى رفاقِه ، وأخبرهُم بما صادفَه من الحظ السعيد ، بحصوله عَلَى فتاةٍ جميلةٍ فاتِنةٍ ، تساوى قدرًا كبيرًا من المال ، وهى مع ذلك معها كيسٌ مملوءٌ بالذهب ، وأخبرهُم أيضاً أنه حصل عليها بعد أن صادف فى طريقِه جنديًّا قويًّا ، كان راكباً جواده ، وصار يتعسس فى الليل مختالاً فى حلته العسكرية فحمل عليه حملَةً شديدة ، وباغتَه ، وضربه ضربةً أصابت منه مَقتَلا ، ثم خلع حُلتَه العسكرية ، وأَخذَها ، وأَخذَ الجواد .

فقالوا له : وأَيْنَ هذا كله ؟

فأخبرهم أنه عند أُمه فى الغارِ خارجَ المدينة ، ففرحُوا بذلك أيّما فرح

وتوجَّهُوا جميعاً معه إلى الغار . مُمنِّين أنفسَهم بليلةٍ هنيئة سَعيدة ، يقضُونها بين السمرِ والأكل والشراب .

فلما وصَلوا وجدُوا المكان قفرا ، إلا مِنْ أُمِّ جوان ، فاستعجب ، وسأل أُمّه فى عُنف : ما الخبر ؟ فأخبرتْه بما حصلَ من زمرد ، فاستشاط غضباً ، وعنّفَ أُمّه على سُوء تَصرُّفِها ، وعلى غَباوتِها المُطبقَة ، وعلى غَفْلتِها التى كانَتْ السببَ فى ضَياعِ هذا الكنزِ الثَّمين ، الذى كان بينَ يَدَيْهِ . وصار يعضُّ بنانه ندماً ، عَلَى تَركِهِ الصيدَ الثمينَ مع أُمه .

حدث هـذا ورفاقُه ما بَينَ راثٍ له ، وهازئٍ به ، وشَامِتٍ فيه ، وضَاحِك عليه .

— وصار يقسم أنَّهُ لا بُدَّ من عثوره عَلَى زمرد ، وأنه سيبْحثُ حتى يجِدَها ، وإن اتخذت نفقاً فى الأرضِ ، أو سُلَّماً فى السماء .

فلم يسعْهم إلا أنهم أخرجُوا ألسنَتهم وأجْرَوْا أصابعَهم عَلَى أُنوفِهم ، فَزادُوه غَيْظاً وحدة ، ورفع صوتَه ، وأعادَ قسمَه : ليأتينَّ بها ذليلةً ، وليذيقنَّها العذابَ ألواناً ، ولوْ أخْفتْها الأبالسة ، أو تحصَّنَت بالبروجِ المشيَّدة .

وهكذا خَرَجَ باحثاً عنْها فى كل المدُن ، حتى سَاقه تجولُه إلى مدينة زمُرد ، فدخلها فى اليوم الذى يُمد فيه سماطُ الملك . فلمادخلَها وجدها خالية من المارَّة ، مُغلقة الدكاكين ، وليس بها ما يَدُلُّ على الحياةِ إلا بعض النساء والأطفال ينظرون من نوافذ دورهم . فلما رأَوْه ينظرُ إليهم مستغرباً

حالَهم، عَرَفُوا أنه غريب، فأعلموه أن سِماطَ الملِك ممدودٌ اليوم، ومن لَمْ يحضرْ يُقتل شنقاً، ودلُّوه على مكانِ السماط. فهرولَ إليه مُسرِعاً، ودخل الميدَانَ، فوجد مكاناً خالِياً. وهو المكانُ الذى أَمام طبق الأُرز المعهود، فَجلسَ فيه، ووقعتْ عينُه عَلَى ما فى الطبقِ، فسال لعابه، وتلمظَ وهمَّ بالانقِضاضِ عليه. فصاحَ به من جاورَهُ :

يا أخانا. ما تُرِيد أن تعمل ؟

قال : أُريدُ أن آكل مِنْ هذا الطبق حتى أشبع، فإنى كُنتُ عَلَى سفَر، وعضَّنِي الجوعُ، حتى صاحتْ عصافيرُ بطنى.

قالوا : إن تأكل منه تصبح مشنوقاً !

فقال : كفوا عن هذركم، فليسَ هذا وقت المزاح، وإذا امتلأتْ بَطنِي من هذا الطبق فإنى مستعدٌّ لممازحتكم.

ثم مدَّ يده بسرعة وكأَنها مخلبُ طيرٍ كاسِرٍ، واقتطَع بها قطعةً كبيرةً من الطبق، فخرجتْ منه وكأَنها خُفُّ جمل، ثم كورها بيده، وقذف بِهاَ فى فمه، وازدردَها وهو يظنُّ أن الناس إنما يصدونَه عنْ هذه الحَلْوَى إبقاءً عليها لهم.

— ونظر أحدُهم إلى الطبقِ فوجدَ قعره قد ظَهر، من لقمةٍ واحدة، فاستعاذ بالله، وقال لجوان الكردىّ مستنكراً مقرعاً :

الحمد لله يا شيخ الذى لم يَجْعلْنى طعاماً بين يديك.

فقال الرجل الفقير ، وكان بجانبه : دعْه يأكل فإني تخيلْتُ فيه وجْه المشنوق .

والتفت إلى جوان وقالَ له : كلْ ، لا هنأكَ الله

فمد هذا يَده ليأخذ اللقمةَ الثانية ، وما كاد يقتطِعُها ، حتى صاحَت زمرد على الجند :

ائتوني بهذَا الرجل ، ولا تدعُوه يأكلُ ما بيده .

فتكاثر عليه العساكرُ ، واقتلعُوه من مكانه اقتِلاعاً ، وذهَبُوا به إليها .

فحبسَ الحاضرونَ أنفاسهم ، ينظرونَ ما سَيجرِي عليه .

فسمعوا الملك يقول له :

ما اسْمُكَ ؟ وما صناعتُكَ ؟ وما سببُ مجيئك إلى مدينتنا ؟

فأجاب : يا مولانا السلطان ؛ اسمي عُثمان ، وصناعَتِي بُستانِيّ ، وسببُ مجيئي إلى هذه المدينة أنني أبحثُ عن شيءٍ فُقِدَ مني .

فقال الملك للجند : عَليَّ بتخت الرمل .

فلما أحضروه أَخذتْ زمرد القلم ، وجعلتْ تخط به فوق الرمْل ، ثم رفعت رأسَها إلى اللصِّ ، وقالت له :

ويلَك من خبيثٍ كاذب ، هذا الرمْلُ يخبرني أنكَ جوان الكرديّ ، وصناعتك لصٌّ تأخذ أموالَ الناسِ بالباطِل ، وقاتلٌ تقتل النفسَ التي حرم الله قتلها إلا بالحقّ .

ثم صاحتْ عليه : اصدقني الخبر ، وإلا قطعتُ رأسَك .

فوجِل اللص ، واصطكَّتْ أسنانُه ، وغاضَ ماءُ الحياةِ من وجهه ، وارتجف جسمُه ، ورأى ألا مناصَ له من الاعتراف أمامَ مقدرة هذا الملك العجيبة .

فقال ، وهو يظن أنهُ سينجو باعترافه من بطشه :

صدقتَ أيها الملك فى كلّ ما قلت ، ولكنى أتُوب ، وأتوب على يديك ، وأعودُ إلى الحقّ منذ الآن .

فقالت زمرد :

لا يحلُّ لِي أن أتركَ آفة مثلك فى مدينتى ، فإن وجودَك فيها شرٌّ على رعيّتى .

— وقالتْ لأتباعِها : خُذوه ، واسلخُوا جلده ، وافعلوا بِه مثلَ ما فَعلتم بالمجوسِيّ فى الشهر الماضى .

فلما رأى الرجل الفقير الذى كان يجاورُ اللصَّ ما حَلَّ به — أدار ظَهرَهُ لِطبقِ الأرز ، وهو يقول : إن استِقبالكَ بوجْهى حَرام ، وإن النظرَ إليكَ حَرام .

— وعلق ثان : إن هــذا الأرزَ مشئُوم على كل مَنْ يأكلُ منه ، ويذوقهُ .

وقال آخر : إن هذا الرجُلَ يستحقُّ ما حلّ به ، فقدْ نَصحناهُ فلم يَنتصِحْ .

ومضَى الشهرُ ، وحل الذى يَليه ، ومُدّ السماطُ ، وأَتى النـاسُ على

عادتهم ، وكلُّ من دخَل منهم يمدُّ طرفَه يختلسُ النظرَ إلى طبقِ الأرز ، ويتَّخذُ مجلسَه بعيدًا عنه .

ونظرتْ زمردُ فوجدتْ مكان طبقِ الأرز خاليًا يتسعُ لنحو أربعةِ أشخاصٍ ، فتبسمَتْ لخشية القومِ من هذا المكان ، وبعدِهم عنه لتوقّعِهم الشرّ منه ؛ وبينما هى تجولُ بنظرِها هنا وهُناك . أبصرت شخصًا يَدخل مُسرِعًا من بابِ الميْدانِ ، فتأملتْه ، فعرفت فيه عَدوّها المجوسِيّ المسمى نفسَه برشيد الدين ؛ ولما وصلَ إلى السماط ، ولم يَجدْ به مكانًا خاليًا غير المكانِ الذى فيه طبقُ الأرز جلسَ فيه .

فقالت زمرد لنفسها : ما أبْركَ هذا الطعامَ الذى دَفعَ فى حبائلِه هؤلاء الفاسقُون الكفرة .

— ولم يكد الرجلُ يمد يده ليأكلَ من الأرز حتى صاحتْ على الجند : ائتونى بهذا الرجُل .

فذهَبُوا إليه وأَتوْا به .

فسألته سؤالها :

ما اسْمُك ؟ وما صناعتُك ؟ وما سببُ مجيئك إلى مدينتنا ؟

فأجاب : يا ملكَ الزمان اسمى رُستم ، ولاصنعةَ لِى ، لأنى دَرويشٌ فَقِير.

فقالت لرجالِها : أحضرُوا تختَ الرمل .

فلما جاءوها به ، وخطّتْ به بعضَ الرسوم — نظرتْ إلى الرجلِ نظرةً يتطايرُ منها الشّرر ، وقالت له غاضبةً :

عليكَ اللعنةُ ، كيفَ تجسرُ عليَّ وتكْذِب ؟! إنكَ تسمّى نفسكَ رشيدَ الدين ، وتدعى الإسلامَ ، وأنت مَجوسىٌّ ، تنصبُ الحيل لجوارى المسلمين ، وتأخذهُن بغير حَق ؛ فانطق بالحق ، وقل الصدْق ، قبل أن تذْهَب روحك .

فتلعثم لسانهُ وهو يقول : صدقتَ ياملِكَ الزمان .

فأمرتْ أن يُضرَب ألفَ سَوطٍ ، ثم يسلخ جِلدُه ، ويحرقَ جسدُه . فسحبه الجنودُ على وجهه ، وهو يصيح ، ويصرخ ، ويلعنُ الساعةَ التى وطئَتْ قدمُه فيها أرض هذه المدينة ، ويسب اللحظة التى خرج فيها من بلَده . والسبب الذى جعله يَسيحُ فى الأرض حتى انتهى به المطافُ إلى تلك المدينة الظالم ملكُها فى رَأْيه . — هو أنه لما عادَ من سفرِه الذى تركَ فيه زمرد موثقةً بقصرِه . أخبره أهله أن زمرد قد فقدتْ ، ومَعَها كيسٌ من المال ؛ فغضبَ غضَباً شديداً وكاد يفقد عقله ، وأرسل أخاه برسوم يبحث عنهـا ، ولما استبطأه ، وخَفِى عليه خبرُه — خرج هو يبحثُ عنه وعَنْهـا ، فرمته المقاديرُ إلى مدينةِ زمرد ، فكان ما حدثَ له ، وذهَبَ غيْرَ مأسُوفٍ عليه .

ولمـا خلت زُمُردُ إلى نفسِها أرسلت الدمعَ يجرى عَلَى خديْها ، وهى تتذكَّرُ ما مرَّ عليها ، وما قاسته ، بسبب تمنّتِ هؤلاء الذين أمرتْ بقتْلهم ، ولـكنها حمدتْ ربَّهاَ ، وشكرتْه عَلَى أنه مكَّنها منهم ، وشَفَتْ نفسَهاَ بقتلِهم ، وابتهلتْ إليه أن يُمنَّ عليها ، فيجمعَهاَ بحبيبها وسَيِّدِها

عليّ شار ، لتعودَ إليها السّعادةُ ، وتَتِم فرحَتُها ، وَيستريحَ قلبُهـاَ ، وَتَهْدأَ نفسها

ومرَّ عليها شهرٌ آخر تحكم فيه بينَ الناسِ نهارًا ، وتتهجَّدُ ليلاً ، وَتدعُو الله أن يفرِّجَ كربَهاَ ، ويبردَ قلْبهاَ ، فيجمَعَ شملها بعليّ شار .

وأجابَ الله دعاءها ، وحقَّقَ أَملها : فما انقضى الشهرُ ، وحل ميعادُ السماط ، حتى أَمرتْ بمدِّه ، وتقاطرَ الناسُ عليه وجلستْ هى فى صَدرِ المكان ترقُب البَاب ، وتترقَّبُ دخول الشخصِ الّذِى تَنْتَظرُه ، ولا تَغيبُ صورَتهُ عن مُخَيِّلَتِهاَ ، وَلا تَنمَحى ذِكْراه من ذِهْنِها ، فلعلَّ اللهَ الذى مكَّنهاَ من أَعدائِهاَ جميعاً ، يَمنُّ عليها بأن يسوق سيدَها أيضاً ، وكانَ أملُها قويًّا ، فأخذتْ تنظرُ كأَنها عَلَى موعدٍ معه حانَ ميعـادُه ، وقَرُبتْ ساعتُه ، أو كأَنَّ قلبها قد أُلهِمَ بأن الله قد استجابَ لِدعائها ، وحقَّقَ رَجاءها .

وفجأَةً ظَهرَ بالبابِ شخصٌ يتقدمُ ، وتأملتْه فإذا هُو شابٌ طويلُ القامةِ ، نحيل الْجسمِ ، وسيمُ الوجه ، أَصفَرُ اللون ، يلوحُ عليه الإبلالُ حديثاً من مرضٍ طويل . فلما تقدَّم من السماط ولم يجد مكاناً غير المكانِ الذى أمامَ طبق الأرز المشئُوم ، جلسَ فيه ، وهمَّ بالأَكل .

جَزِعَ الحاضرونَ لأنهمْ رأَوْا ما لمْ يَرَوْهُ فيمن سَبقوه ، وأَحسُّوا فى قلوبِهم حنـاناً نحوه ، وعَطفاً عليه ، فعزَّ عليْهم أن يكون ضحية طبق الأرز .

فقالوا له : أيها الشابُ ، إنك لا تستحِقُ الموتَ ، فلا تأكُلْ من هذا الطبق . فإنه وبالٌ عَلَى كلِّ مَنْ أَكلَ منه .

فهزَّ الشابُ رأسَه غير مبالٍ . وَقال : دَعونى آكل منه ، فلستُ آبهاً بما يحدُثُ لى ، لعلنى أَستريحُ من هذه الحياةِ الشاقةِ المتعبةِ ، ولعل القدرَ ساقَنِي إلى هـذا المكانِ لأخرج منه بإحدى الراحتَيْن : الحياة السعيدة الكريمة ، أو الموْت .

ومدَّ يدَه إلى الطبقِ ، وشرعَ يأكل ، والنـاسُ ينظرونَ إليهِ مشفِقين ، ثم تحولَتْ أنظارهُم نحو مكان الملِك ، وكأنها تناشِدُه ألا يصيبَ هذا الشابَّ البائسَ بِسُوء .

ولكن الملِكَ ظلَّ ساكِناً ، وَلم يصدرْ أمره المعروف بالقبضِ عَلَى آكل الأرزِ ، وَإحضاره إليه لمناقشته ، بل ظلَّ ساكناً حتى انتهى من طعامه .

كانت زمرد تجلسُ ساكنة فى الظاهر ، وَلكنها تضطرمُ اضطراماً فى الباطِن ، يخفق قلبها ، وَيعتلج فؤادُها ، وتود أن تهبَّ صارخةً صائحة .

إلَيَّ يا عَليّ شار ، هأنذا زمرد جالسةٌ فى انتظارك .

ولـكنها كانتْ تتماسَكُ ، وتتجلّدُ ، وتثبتُ نفسها تثبيتاً فوق مَقْعدها : خوفاً من أَنْ تَبدُو منها بادرَةٌ تدل على ما خَفِى من حَالِها ، وتفضح أمرَها أمامَ الناس .

كان الشخص الذى دَخل إلى الديوان ، وتركَتْه زمرد يأكلُ من طبق

الأرز ، هو علىٌّ شار الذى انتظرته طويلا ، ثم أتى أخِيراً بعد طُول الانتظار : نحيفاً ، نحيلا ، مصفراً ، بائساً ، يَبْدُو عليه السقمُ ، وتباريحُ المرض .

كان قد أَبلَّ حديثاً من مرض طويل دَهمهُ عقب ضَياع زمرد ثانيةً من بين يديه ، بِسبب غَفْوتِه ، وغَفْلته ، وكاد الحزنُ يقتلُه ، وتأنيبُ الضمير يصرعه ، لما استيقظَ من نَومِه على مصطبةِ قصر المجوسىّ ، فوجد رأسَه عاريا ، وعمامتَه مسروقة ، وميعاد زمرد الذى حددته معها العجوز قد مَرّ ، ومَضَى عليه وقتٌ طويل . أَسرع إلى العجوزِ يخبرُها بما حدثَ منه وله ، وقصّ عليها قصة مصيبته .

واستمعتْ له العجوزُ آسفةً له ، حانقةً عليه . ثم قالت له غاضبة :

إن مصيبتَك وداهيتَك من نفسِك ، فقاسِ ما ينزل عليك ، وتحمل ما يحلُّ بك ، فما رأيتُ رجلا فيه بلاهتُك وتغفيلك ! لا تسمعُ نصيحة ، ولا تعمل بوصيَّة ! وما زالت تلومُه ، وتعنفهُ ، وتقرعُه ، وهو جالس يتململُ ، وينظرُ إليها بنظرات كسيرة ، فاترة حزينة ، ولا يستطيع أن يَردَّ عليها ؛ فكان كلما قَستْ عليه فى الكلام ، استعرض ماضِيه فى خياله استعْراضاً سَريعاً ؛ فيرى أنه لم يَسمع نصيحة أبيه ، فأَضَاع مالَه ، وفقد تجارتَه ؛ ويرى أنه لَمَ يَسْمع نَصيحةَ زمرد ، وباعَ السّتر لغيرِ تاجرٍ ، ففقد زمرد ؛ ويرى أنه لم يسمعْ نصيحةَ العجوزِ ، ونام على المصْطبةِ ففقد زمرد ثانية ، وفقد عمامتَه .

وفى أثناء استعراض ذلك الماضى ، كانت العجوزُ تقرصُه بكلامها اللاذع المُرّ ، فخانته أعصابُه ، وفقد وعْيه ، وتمدد على الأرضِ مَغْشِيّا عليه .

فلما أَفاقَ ، وجد العجُوزَ على رأْسِه ، تسعفُه ، وتعملُ على تنْبيهِه ، وتُضمخ رأسَه بالطيبِ ، وترش على وجْهه ماءً بارداً ؛ وهى تبكِي ، وتكادُ تخنقُها العبرات ، لأنها هى التى أساءت إلى الفتى بقارص العتاب ، ولاذع الكلام .

فلما رأته قد استردّ وعْيَه . قالت له :

يا علىّ . امكث حيث أنْتَ ، حتى أَذهبَ ، وأكشفَ لكَ الخبر ، وأعودَ إليك سَريعاً .

— فقال : سمعاً وطاعة ، افعلى ما تَريْن .

وذهبت العجوزُ ، وغابَت حتى منتصفِ النهار ، ثم عادت تجرأذيالَ الفشلِ ، وخيبة الأمل ، وجلستْ بجانب علىٍّ تتحسَّرُ فى نفسِها على شبَابِهِ الذى سيَذْوى ويذْبُل .

ولما سألها عَلِىٌّ ، وأَلحفَ فى السؤال قالت :

ياعلىُّ تقَوَّ ، وتجلدْ على فراق جَارِيتك ؛ فإن لقاءها قدأصبح عليكَ عَسِيرًا ، ورؤيتها صارتْ منك بعيدة ؛ ويخيل إلىَّ أنك لن تلقاها بَعْدَ ذلك أبداً

فإنى لما ذهبتُ إلى القصر الذى كانتْ به : وجدت الوالىَ واقفاً على

بابه هو ورجاله ، ووجدت جمعاً كبيراً من الناس مجتمعين ، فلما سألتُ عن السببِ ، قيلَ لى :

إن أهل القصر أصبحُوا فوجدوا إحدَى النوافذ مخلوعة ، وجارية تُدعى زمرد مفقودة ، ومعها كيسٌ مملوء بالمال .

فلما سمع علىّ كلامها تبدل الضياء فى وجهه ظلاماً ، ويئس من الحياة ، وتمنى أن يعجل به الموت . فيستريحَ . وما زالَ يتأوه ، ويتألمُ ، ويئنُّ ، ويزفر — حتى اضطربت أعصابهُ ، وبدأ يهذى هَذَيان المحموم ، ويتكلّم كلاماً غير مَفهوم ، ولا معقول ؛ وظل كذلك حتى عاودتْه الغشيةُ ، فطار صوابُه ، وفقد وعْيه ، فارتبكَتِ العجوز لتكرر هذا عليه ، ولكنها أخذتْ تسعفهُ حتى أفاقَ ، ولكنه وقع فريسة للمرض والهذيان .

فلم تتركه المرأةُ بل ظلت تخدمُه ، وتمرضُه ، وتجلب له أطباء الجسم وأطباء الروح ، وتحضر له ما يصفُونه له من دواء ، وتُعدُّ له الشّرابَ ، وتطهى له المساليق مدة عامٍ كامل .

فلما انتعشَتْ نفسُه قليلا ، قالت له :

يا ولدى ، اترك الحزْنَ ، ودع عنكَ الاكتِئابَ ، فإنه لن يَردّ عليك جاريتك ، بل انهضْ ، وتقوَّ . واشْددْ عزمك وأَحيِ أملَك ، وابحثْ عنها ، واستقْصِ خبرها ، لعلك تعثُر عليها .

وما زالت تنشّطه ، وتبعث الأمَل فى نفسِه ، حتى أطَاعَها ، وتقبل نَصِيحتها ، ونهضَ معها فأدخلتْه الحمام حيث اغتَسل ، فرجع إليه بعضُ

النشاط ، وأزيح عنه اليأس ، وعاوده حُبُّ الحياة ، والرغبةُ فى المجاهدة فى سبيل الحُصُول على زمرد .

وأخذ يُعِدّ نفسَه ، ويجهز حاجته للسعى فى هذا ، وجارَتُه العجوز تساعده ، وتؤيده وتدفعُه إلى ذلك دفعاً ، وتدعو له بالتّوفيق .

وارتحلَ عليُّ شار ، وتنقل بين المُدن والبلاد يستقصى أَنْباء زمرد ، ويستنشق أخبارَها ، وظلَّ يطوفُ هنا وهناك حتى نالَ منه التعب منالا عظيما ، وأصبح غير قادرٍ على مواصلةِ رحلتِه ، وتملكهُ اليأسُ من جديد ، وأظلمت فى عينيه الدنيا ، وتشوشت أفكارُه ، واكتنفته الهواجس .

ودخل مدينة زمرد كما دخل مدنا من قبلها ، وهو محطّم النفْس ، كَسير القلب ، وزادَه بُؤساً وعُبُوساً أنه رأى هذه المدينةَ خالية إلا من نسائها وأطفالِها ، ووجد دكاكينها جميعاً مُغلقةً ، ولكن بعْضَ الغلمان أسرعُوا إليه ، وأخبروه خبر الوليمة السلطانية ، وكان قد أَمَضّه الجوعُ ، فأسرع إليها ، ودخل إلى السماط .

ورأَتهُ زمرد ، فعرفتْه من أول وهْلَة ، وودت لو صاحتْ عليه ، ونادته إليها ، ولكنها فطِنتْ إلى أنه لا بد جائع ، فتركَتْه يأكلُ حتى اكتفى ، ثم أرسلتْ إليه غلامين قائلة لهما :

اطلبا من هذا الشّاب برفق أن يحضُر إلىّ ، وقولا له : إن الملكَ يريدُكَ ، وإيا كما أن تُزْعِجاه . فقالا :

سمعاً وطاعة .

وذهبا إليه ؛ فبلغاه الرسالَةَ ، فمضى مَعهُما إلى الملكِ ، والنـاسُ بعضهم يتحسر عليه . ويقولون : لا حول ولاقوة إلا بالله ! أيا ترى ! ما الذى يَنْوِى الملك أن يفعلهُ بهذا الشاب اللطيف ؟ !

ويقول بعض آخر : إن الملكَ لن يفعلَ معه إلا خَيْراً ؛ لأنه لو أراد ضررَه ما تركَهُ يأكل حتى يشبعَ ؛ فإن الذين سبقُوه كانوا إذا مدوا أيديَهم إلى الطبقِ لا يُمهلهم حتى يأكلوا منه ، ولذلك كان الواحد منهم بمجرد مَدّ يدِه يسارع إلى إرسال من ينهرُه ، ويزجُرُه ، ويحملُه إليه حَمْلًا عنيفاً قاسياً ، وإن نظرات الملك يشع منهـا الرضى والسرور ، وإن الابتسامَة لا تفارقُه منذ وقع نَظرُه على هذا الشاب .

ولما مثل علىّ أمامَ زمرد ، قبّلَ الأرض بين يديْها ، وهو لا يعرفُ من أمرها شيئاً ، فقابلته بالبشاشة واللُّطف ، وسألتْه سؤالها المعروف :

ما اسمك ؟ وما صناعتك ؟ وما سبب مجيئك إلى مدينتنا ؟

أجاب علىّ : يا ملك الزمان . اسمى علىّ شار ، وأنا من أولاد التجـار ، وبلدى خراسان ، وسبب مجيئى إلى هذه المدينة هو أنى أبحثُ عن جارية عزيزة علىَّ ، فقِدتْ منى ، وزحمت صدره أنةٌ حارة ، ولـكنه لا يستطيع أن يتأوه ، أو يئن . وحاول أن يكتُمَ أنّته ، ويكظم آهتَه ، فاحتقن وجهه ، وغلا دمه فى رأسه ، وطفرت دمعةٌ واحدة خففت من وَجده بعض الشىء ، ثم حاول أن يحبسَ دموعَه بعْدها فلم يستطع حبْسَها ، أو منعَها ، فسالت على خدّه ، وهو يرتعد خوفاً .

فأمرت زمردُ أن يلاطِفُوه ، ويداعبُوه ، ويخفّفُوا عنه ما به ، وأن يسقوه من ماء الورد ، وأن ينضحُوا وجهه به .

ثم قالَت : أَحضروا تخت الرمل .

وبعد أن تأمَّلت فيه وقتاً ، وملأت عينيها منه ، وارتاحت نفسها ، وبرَد قلبها خطَّت فى الرمل على عادتها ، ثم قالت له :

صدقت فى كلامِك ، وسيجتَمِعُ شملُك قريباً بمَنْ تحب إن شاء الله ، فلا تَقلق . وأمرت الحاجب أن يمضى به إلى الحمام ، ويلبسَه ثياباً حسنة من ثياب الملوك ، ويركبَه فرساً من خواص خيل الملك ، ويحضره إلى القصر فى نهاية النهار .

فقال الحاجب : سمعًا وطاعة . وأخذ عليًا ، وتوجَّه به بين سرور الناسِ بحُسنِ مَصيرِه ، وتعجُّبهم مما فعلَه معه الملك .

ولما أمسَى المساء ، وصعدت زمرد إلى مُعتزَلها — أرسلت فى طلب علىّ شار ، ودعَتْه إليها .

فتعجب أهلُ القصر من معاملةِ الملك لهذا الشّاب . وعلّقَ كل واحد على هذا الأمر . فمِن قائل :

ما بالُ السلطانِ قد لاطف هذا الفتى كل هذه المُلاطَفة؟ ! !

ومن قائل :

إن الملك قد تعلّقَ بهذا الشّابّ ، وفى غدٍ سيجعله قائد عسكرِه .

ومن قائل :

ليس فى ذلك موضعُ عجب ؛ فإن الفتى صَدَق الملك حين وجّه إليهِ أسئلته، ولم يَلْنو فى إجابتهِ، ولم يُخف شيئًا؛ فقدر له الملك صدقه وصراحتَه، ولو أن الذين سألَهم الملك من قبله صدقُوا فيما قالُوا لما أصابهم ما أصابهم .

ومن قائل :

إنه عَلَى أىٍّ حالٍ شابٌ لطيفُ المعشر ، عَذبُ الحديث ، خفيفُ الروح ، بارع الجمال .

وأرادت زمرد أن تداعبَ عليًّا بعد أن مَثُل بين يديها ، وقابَلهــا مقابلة الملوك وقبل أن تكشفَ له عن حقيقةِ أمرها حتى لا يُفاجأَ بأمرٍ عظيم فلا يتحمل المفاجأة .

فقالت له : يا علىّ . هل دخلْتَ الحمام .

أجاب : نعم يا مولاى .

قالت : وكيف وجدتّه ؟

فاحمر وجه الفتىَ خجلاً ، ولم يُحر جوابًا . فضحكت زمرد، وأشارت له إلى مائدة عامرة بمختلف الأطعمة . وقالت له :

يا علىّ : دونك هذا الطعام فكل حتى الشبع ، ودونك هذا الشراب فاشرب حتى تروى ، وبعد ذلك احضر عِنْدى ، وأنا جالسٌ فى هذه الغرفة القريبة حتى تَنْتهِيَ من طَعامِك وشَرَابِك .

ففعل ما أمرتْه به ، وذهبَ إليها . فنادتْه باسمِه ، وقالت له :

أيا علىّ : أما تعرفُنى ؟ ! ما أسرَع ما نسيتَنى !! وما أعجبَ أن تخونَك ذاكرتُك فلا تعرِف ألصق الناس بك ، وأشدّهم رباطًا بحياتك ! !

فرفع نظره إليها وقال : ومن أنتَ أيها الملكُ ؟ أنا لا أعرفُ عنكَ إلا أنك ملك هذه المدينة .

أجابت أنا جاريتك زمرد .

لم تقو أعصاب الفتى الحائرة على تحمل هذه المفاجأة فسقط مغْشِيًّا عليه ، فتولَّت زمرد إسعافَه ، وعيناها لا تكُف عن ذَرف الدموع حتى أفاق .

وكان اللقاء بينهما لقاء ما أحرّه من لقاء ؛ تشاكيا ! وتباكيا ! وتعاتبا ! ولكن حلاوة اجتماعهما أنستهما سريعًا جميع ما مرَّ عليهما من مِحَنٍ ، وما أصابَهما من بلاء .

وفى الصباحِ . دعت زمردُ رؤساء العسكر ، وأرباب الدولة ، وقالت لهم :

إنى قد عَرفت من هذا الرجل أحاديثَ عجيبة عن بلده ، وذكر لى أمورًا لا بد أن أقف عليها وأعرفها ، فإنها إن صحت تنفعُ مدينتنا ، فنستطيع أن نجلب لكم عددًا من عمّال هذا البلد وصنّاعه لأنهم مهروا فى صنع أشياء كثيرة ، وأجادُوها ؛ فدرَّتْ عليهم مالا كثيرًا ، وعادت على وطنهم بالخير والبركات . وقد بلغنى منه أن كثيرًا من أهل بلده يحبونَ أن يرحَلوا منه إلى أى بلد آخر ما داموا يجدُون رزقًا أوسع ، ومالا أوفر . وأخبرنى أن ملكهم لا يمنعُ أن يخرجَ هؤلاء العمالُ والصناع إلى بلد غير بلدهم ؛ لينشروا علمَهم وفنَّهم ، وخاصة إذا كانَ ذلك الخروج إلى قريبٍ من بلدهم ؛ فإن ذلك يقوّى أواصرَ الصداقةِ بينه

وبينَهم ، وأنا سأخْرجُ بنفسي إلى أَخِي ملكِ هذا البلد لأزوره ، وأعرِض عليه أن يوفدَ معِي بعضَ رجاله ، وسأقيم عليكم مَلِكا نائباً يتولى أمركم ، ويرعى شئونكم حتى أعودَ إليكم .

فأجابوا زمرد بالسمع والطاعة .

وسرعان ما تأهبَتْ زمرد للسفر هي وعليّ شار . ثم غادرا المدينة يشيعهما أهلها بصالح الدعوات ، ويتمنون لهما جميلَ الأماني ، ويسألونَ الله أَنْ يوفقَهما أكرم توفيق في السفر والإياب .

ووصلا أخيرًا إلى بلادهما بعد طول غياب ، ونزلا في منزلهما ، وقابلتهما جارتهما العجوز بالفرح والسرور والترحاب .

وظلت تحبوهما بعطفِ الأم وحنانها ، كما حظى أولادهما بعد ذلك بكل عناية ورعاية

أما أهل المدينة الأخرى فقد ظلوا زمناً طويلا ينتظرون عودة ملكهم المصلح العادل ، ويتمنّونَ أوبتَه ، ولكنه لم يَعُدْ ، وظلوا يتساءلُون ، ويتكهنُون عن سِرّه الغامض من غير أن يصل أحدٌ منهم إلى المعرفة .

وهكذا باعت زمرد سلطانَها ومُلْكَها ، واشترتْ قَلْبها ، فإن القلْبَ أبقى وأسعد والعيش في ظِلّه أهنأ وأرغد .



التفاحات الثلاث

رغب هارونُ الرشيدُ أن يتجوَّلَ ذاتَ يومٍ في دُرُوبِ بَغدادَ ومسالِكِها ، ويَعُسَّ في أَحْيائِها ، ليقفَ على أحوالِ رَعِيَّتِه ؛ فَلَعَلَّهُ يجدُ ملهوفاً يُغيثُهُ ، أو مكروباً يُفَرِّجُ كُرْبَتَه ويُؤْوِيه ، أو فقيراً يُعطيه ، أو لعلَّه يجد عِوَجاً يُقِيمُه ، أو صَدْعاً يَرْأَبُه ؛ وَيَتَعهَّدُ منابِتَ الخيرِ لِيَغذُوَها بِعَوْنِه ، ويَرْفدَها بعنايتِه واهتمامِه .

خرجَ الخليفةُ ، وجعفرٌ وزيرُهُ ، ومسرورٌ سيَّافُه ، وأخذوا سبيلَهم في أنحاء بغداد ، حتى كانوا في حارةٍ ضَيِّقةٍ ، فلَقِيَهُمْ شيخٌ مُعَمَّر ، نالتْ منه السِّنون ، فابيضَّ شعرُه ، واعوجَّ عُودُه ، وتَغَضَّنَ جِلْدُه ، وارتَعَدَتْ أعصابُه ، وضَعُفَ بصرُه ، وَبَقِيَ فيه من القُوَّةِ ، القدرُ الذى يُمَكِّنهُ من السَّعيِ للحصول على الكَفافِ من قُوتِهِ ، وقُوتِ عياله ،

وكان يَحملُ على كتِفِه شبكتَه ، وعلى رأسِه قفته ، ويسيرُ الهُوَيْنى مُتَحاملاً على عُكَّازَته ، ويرددُ هذا القولَ فى عجبٍ وحسْرَةٍ .

يقولون : إن علمكَ غزيرٌ ، يَشِعُّ من حنايا صدرِك ، فَتُشرق الأرضُ بنُورِه ، ويجدُ الناسُ فيه الشعاعَ الهادىَ لكل ضالٍّ ، والنداء المُوقِظ لكل غافلٍ ، ولكنْ : ما فائدةُ العِلم لصاحِبه ؟ ! وهل يجدُ فيه رزقَه ؟ !

إنى لو بِعْتُ ما لدىَّ من عِلم بقُوتِ ليلَةٍ ، ما وجدتُ من يَنْقُدُنى ثمَنَه ، ولو رجوْتُ أن يكونَ لى منه رزْقُ يومٍ كان ذلك من خداع النَّفْسِ بالمُحال ، وتعليلِها بالباطل ، ولكنَّ العافيةَ منبتُ الرزقِ ، ومَطلَعُ الخيرِ ، ويَنبُوعُ المالِ ، وقد أَلَحَّ الفقرُ على الضعفاء ، فقطعَ أنفاسَهم ، وكادَ يُزْهِقُ أرواحَهم ، وجعلَهم فى مَعْزِلٍ عن الحياةِ ، فَبَرِمَ بهمُ الأغنياء ، ونفر منهم الأحياء ، حتى الكلابُ تراها لا تنبحُ إلا الفقراء ، لأنها تراهُمْ يُشارِكُونها فيما يُلْقَى إليها من فُتَاتٍ وعِظامٍ ، فأَصبحوا ولا مَكَانَ لهم إلا قبرٌ يُؤْويهمْ ، ويُسبِلُ الستارَ عليهم ! !

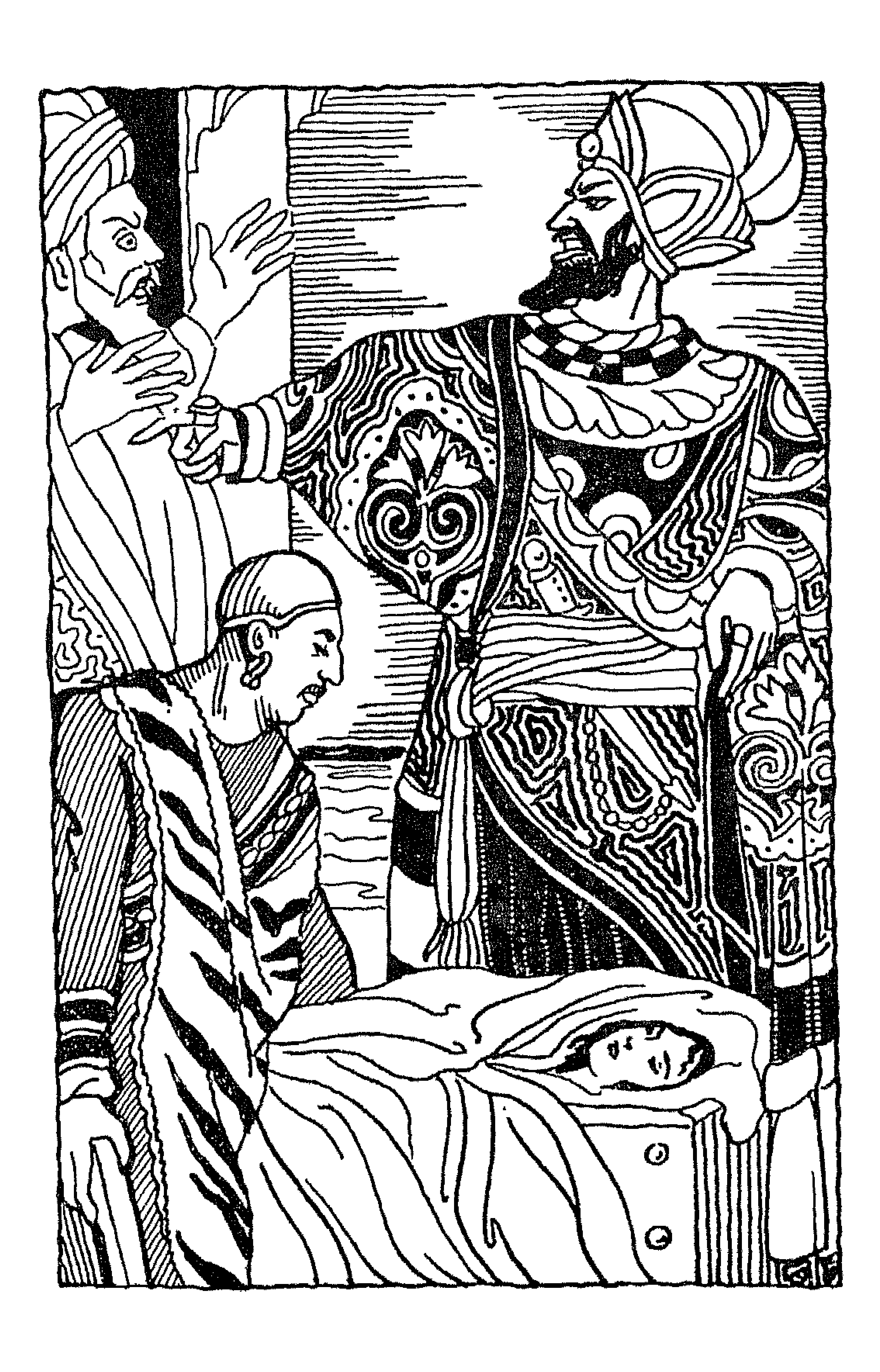
فقال هارونُ لجعفرٍ :

لعل هذا الشيخ فى مسيسِ الحاجةِ إلى مَعُونةٍ ؟ فتبيَّنْ حالَه .

فأَقبل جعفرٌ وسأَله :

ما عملُكَ أيُّها الشيخُ ؟

فقال : تقْرَؤه فى شكلى ، ولكنَّ الأنظارَ تنبُو عن الفُقَراء ! عملى



صَيَّادٌ ، وأُسرتى كثيرةُ الأفراد ، وأنا عِمَادُها ، وعلى يدىّ رزقُها ، وقد ذهَبْتُ إلى النهرِ من طلوعِ الفجر ، وأخذتُ أترددُ على شاطِئه ، وأطرحُ شبكَتى فى الماء ، ثم أجذِبُها ، وأُمَنِّى نَفْسِى كلما أَوْشَكَتْ أن تيأس ، ولكنْ لم أُرْزَقْ سمكةً واحدة حتى الآن — وكان الوقتُ وقتَ الأصيل — فَبَرِمْتُ بالحياة ، وأحببْتُ الموتَ ، حتى لا أرى عيالى يَعَضُّهم الجوعُ ، ولا أستطيعُ أن أُطعِمَهم ، أو أَشْغَلَهُمْ عن جُوعِهم .

فقال الخليفةُ : ألا تُحبُّ أن ترجعَ بنا إلى النهر لقاءَ ثلاثمائةِ قطعةٍ من الذهب ، على أن يكونَ لنا ما تُخرِجُه شبكتُك ، مهما يكنْ من أمرِه .

ففرح الصَّياد ، ورجا أن تكونَ الأيامُ قد أشرقتْ بنورِها فى وجْهِه ، وانتعشَ عاثرُ جدِّه ، وفَكَّ أغلالَ قدميْه بارقُ أَمَلِه ، واسْتَنْفَرَ قاعدَ هِمَّتِه إلى نهرِه .

وباسم اللهِ أَلْقى شبكتَه ، وأنْظرَها فى النهرِ قليلاً ، ثم جَذَبَها إليه ، ولما ثَقُلَتْ فى يدِه — استَبْشَرَ باليُمْنِ والنِّعمةِ ، وجاهَدَ فى إخراجها ، حتى كانَتْ على الساحِلِ بَيْن أَيْدِيهِم ، وقد التقمتْ صُندوقاً مُقْفَلاً ، لا يَدْرى أحدٌ ما فى جوفِه ، فنَقَده الخليفةُ الذهبَ الذى وَعَدَه ، فأَخَذَهُ شاكرًا ، ودفعهُ الفرحُ بالذهب ، والرغبةُ فى إطعامِ عياله — أن يَعُودَ سريعاً إلى منزلِه .

أما الصُّندوقُ فقد أَمَرَ الخليفةُ أن يُحملَ معهُ إلى قصرِه ، فَفُتِحَ أَمامَه ، وانفرجَ عن فتاةٍ قطعتْ إرْباً إرْباً ، تَنِمُّ معالِمُ جمالِها الباقيةُ ،

عما كانَتْ عليْهِ من رَوْعةِ الحُسْنِ والبهاء ، فاربَدَّ وجهُ الخليفةِ غَضَباً ، وأَصبحتْ نفسُه جحيما يَستَعِرُ بالغَيْظِ والأَسى ، لهذه الفتاةِ التى أُزْهِقَت روحُها ، وقُطِّعَتْ أوصالُها ، وأُلْقِيَ بها فى النهرِ ، فى غفلةٍ من الرُّقَباء ، وإهمالٍ من الأعوانِ ، أَلْهَبَ سُعَارَ المُجرمين الأشقياء .

ذكَر أنَّ عليه واجباً ، وأنَّ اطمئنانَ الناسِ ، وشُيُوعَ الأمنِ بينهم أولُ ما يجبُ أن يُعْنَى به الحاكمُ ، وتمثَّلَتْ أمامَه مسئوليتهُ ، ففارَ فَوْرةَ الجبّارين ، وأقسمَ ليقتُلَنَّ جعفرًا وأهله ، وليَصْلِبَنَّهُمْ فى خُشُبٍ مَنصوبةٍ فى السَّاحةِ العامةِ أمامَ قصرِه ، إن لم يُحضِرْ قاتِلَها . وأمْهلَهُ ثلاثةَ أيام ، تنتهى بإحضاره القاتلَ أو صَلْبِه وأهلِه .

— فابتأَسَ جعفرٌ واستكانَ ، لأن الأمْرَ مُغْلَقٌ فى وجهِه ، لا يجدُ له باباً يَلِجهُ ، ولا مَنْفَذًا يَسْلُكه — حتى يكشفَ اللِّثامَ عن وجْهِ الحادثةِ وينشقَّ عن نُورِ الحقيقةِ ، وأيْقنَ أنهُ مهما يَكُنْ بحثُه ، فلنْ يكونَ مصيرُه إلا مصيرَ الفقاقيعِ الغازيَّةِ على وجهِ المَاءِ الآسنِ ، فذهبَ إلى منزلِه مكتئباً مُشَرَّدَ اللبِّ ، لا يَدرِى ما يفعلُ ، ويقولُ فى نفسه :

كيف أُكَلَّفُ البحثَ عن قاتلٍ فى حادثةٍ بلغَتْ من الخفاء مبلغاً تَضِلُّ فى زواياه الفِطَنُ ، ويضيعُ السعىُ فى نواحيه ضياعَ العجز .

ومن لى بغيبِ اللهِ الذى لا يَطَّلِعُ عليه أحدٌ .

وكيف تُطَوِّعُ لى نفسى المؤمنةُ أن أجْترِحَ إثمًا أو خطيئةً ، فأَنْسُبَ إلى إنسانٍ برىءٍ تلك الجريمةَ . فأكونَ قد قتلتُ نفسًا بغير نفسٍ لأفِرَّ

بنفسي من جَوْرٍ صارخٍ ؟! وإذا نَجَوْتُ بهذا الباطلِ في الدنيا ، فمن يُنجيني من عذابِ اللهِ يومَ القيامةِ ؛ إذا المقتولُ سُئِل بأي ذنبٍ قُتِل ؟!

اللهم لا رادَّ لقضائِك ، ولا مُعَقِّبَ لحُكْمِك فاهدِني صِراطَك المستقيمَ ، ونَجِّني وأهلي من الظلم المبين .

وعكف ثلاثةَ أيام حبيسًا في داره ، حبيسًا في حَيرته وحُزنه ، وفي اليومِ الرابع جاء رسولُ الخليفةِ في طلبه ، فلما كانَ بين يديْه سأله : أينَ قاتلُ الفتاة ؟

فقال : ذلك من غيبِ اللهِ الذي لا يُطْلِعُ أحدًا عليه .

فقال : ولكنَّا تولَّيْنا أمرَ الناسِ ؛ لندفعَ بعضَهم عن بعض ، وليكونَ الضعيفُ قويًّا بنا حتى نأخُذَ الحقَّ له ، والقويُّ ضعيفًا عندنا حتى نأخذَ الحقَّ منه ؛ ولوخَشيَ القاتلُ الآثمُ يقظتَك وبأسَك ، ما فعلَ فَعْلَتَه التي نحن مسئولون عنها يومَ القيامة ؛ وإن لم تكنْ قتلْتَ الفتاةَ بيدِك ، فأنت شريكُ القاتلِ بإهمالِك .

فقال جعفرٌ : إنما الحكمُ للهِ وهو وليّ الصابرين .

وأمر الخليفةُ أن يُؤَذَّن في الناسِ بالحُضورِ إلى الساحةِ العامَّة ، ليشهدوا مَصْرَعَ الوزيرِ وأهلِه ، وليكونَ ذلك نذيرًا للوُلاةِ من بعده ، ومُزْدَجَرًا يَرْدَعُهم ، ويُصلحُ ما يفسُدُ من أمْرِهم .

وسِيقَ الوزيرُ وأهلُه في اليومِ الموعودِ ، إلى الساحَةِ العامَّةِ لقتلِهم وصلبهم ، وحضر الناسُ من كل فجٍّ ، فغصَّتْ الساحةُ بأناسٍ شاخصةٍ

أبصارُهُمْ ، مُصْفَرّةٍ ألوانُهم ، واجمةٍ نفوسُهم ؛ إذ لفتهم هذا الأمرُ ، ولم يكونوا يعرفونَ له سببًا ؛ ووقف كلٌّ من الوزير وأهلِه أمامَ خشبته التي أُعِدّتْ لصَلْبِه بعدَ قتْلِه ؛ وأُعْلِنَ الحكمُ ، وانتظرَ الجنودُ أمرَ الخليفة بتنفيذِه ، في سكونٍ رهيبٍ ، وحيرةٍ حائرةٍ .

وبينما هُمْ على هذهِ الحال ، إذ شقَّ الجمعَ الحاشدَ ، والسكونَ المُخيم السائدَ ، شابٌّ ناضرُ العودِ ، ناعمُ الأُمْلُود ، يتألقُ وجهُه وضاءةً ، ويَفيضُ نعيماً ، يَشُوبُ وَجْهَه سحابةٌ رقيقةٌ من حُزْنٍ عميقٍ ، حتى كان بيْن يدىْ جعفرٍ ؛ فقال :

لا تثريبَ عليك أيها الوزير ، وما كان لك أن تُساقَ إلى الموتِ ويُطْفَأَ نورُ وجودِك ، بغير حقٍّ أضعتَه ، أو إثمٍ اجترحْتَه ، وقد حَبَسْتَ علينا حياتَك ، ورَصَدْتَ لنا عَدالتَك ورعايتَك ؛ أنا قاتلُ الفتاةِ التي وُجِدَتْ في الصندوق ، فاقتلْني بها ؛ فافترّ ثغرُ جعفرٍ عن ابتسامةٍ حائرةٍ ، وفرِحَ لنجاتِه وأهلِه ، ولكنَّه تألّمَ لهذا الشاب الذى وهبَ له طائعاً حياتَه ، وقدّمَ نفسه قُرباناً لنجاتِه .

وما كاد الشابُّ ينتهي من كلامه ، حتى كانَ شيْخٌ كبيرٌ يشقُّ طريقَه بين الناسِ ؛ ولما وَصَلَ إلى الوزير والفتى ، سلم عليهما ، وقال :

لا تُصَدّقْ هذا الفتى ، وما كان له يدٌ في قتلِ الفتاةِ ، ولكني أنا الذى قتلتُها ، ومِنَ العدالة أن يكون القصاصُ مني .

فقال الفتى : لعل كِبَرَ سِنّه ، نال من عقلِه ، فأفقَده رُشْدَه ، فلا تأبَهْ

لقوله ، ولا تعبأْ باعترافه ، وما قتل الفتاةَ إلا يداى هاتان ، ومن الحقّ أن أحْمِلَ قِصَاصَها ، ويُثأرَ لها منى .

فالتفت الشيخُ إلى الفتى قائلا : إنك لا تزالُ فى صُبح حياتِك ، لم تنعَمْ بخيرِها ، ولا بفُسحة الأجل فيها . أما أنا فقد قَطَعْتُ يوْمَها ، وآذَنَتْ شَمْسُ حياتى بالغرُوب ، وقَضَيْتُ مآرِبِى فِيها ، ونَفَضْتُ يَدَىَّ منها ، فأدْبَرَتْ عنى ، وأدْبَرْتُ عنها ، وأُقَدِّمُ الآن نفسى فِدْيةً لك ، وللوزير وأهلِه . ومن البِرّ أن يُعَجِّلُوا بقتْلِى دَرْءًا للظلْمِ أن يُصِيبَ غير مَوْضِعِه .

فأخَذَهُما الوزيرُ إلى الخليفة ، وقال : لقد قَدِمَ علينا قاتِلُ الفتاةِ يا أميرَ المؤمنينَ .

— فقال : أَحْضِرْهُ حتى نَتَبَيَّنَ أمْرَهُ قبل أن نقتصَّ منه .

فقال جعفرٌ : إن هذا الفتى يُصِرُّ على أنه هُوَ القاتلُ ، وهذا الشيخُ ينفى عَنْــهُ الجريمةَ ، ويَنْسُبها إلى نفسِهِ ، ويُلِحُّ فى أن يُعَجِّلَ بالقصاصِ منه .

فنظر الخليفةُ إليهما قائِلاً أيُّــكُمَا قتَل الفَتاة ؟

فقال الفتى : لم يَقتُلْها أَحَدٌ غيرى .

وقال الشيخ : لقد سَفَّهَ هذا الفتى نفسَه ، وعقَّ شخصَه ، فأسلَمَ نفسَه إلى موتٍ آثِمٍ ، والحقُّ الذى لا مِرْيَةَ فيه أن الفتاةَ ما قتَلَها أَحَدٌ غيرى .

فقال الخليفة : إذا كانَ القاتِلُ واحدًا ؛ فَمِنَ الظلْمِ أن يُقتلَ آخرُ بريءٌ منه .

فقال الفتى : وحقٍّ من رفَعَ السَّماءَ بغير عَمَدٍ ، ما قتَلَها غيرى . وأخذ يَذْكرُ للخليفةِ ما حواهُ الصُّندوقُ ، ولَوْنَ الإزارِ الذى لفَّ أشلاءها ؛ فاقتَنَعَ الخليفةُ أنه هُو القاتلُ . ثم سأله : وما حَمَلكَ على قَتْلِها ؟

فقال الفتى : هذه الفتاةُ زوجِى ، وهذا الشيخُ الفانى عَمِّى ، وهى ابنتُه تَزَوَّجْتُهَا بِكْراً ، ووَهَب لى ربِّى منها ثلاثةَ أبْناء وقد سَكَنَ كُلٌّ منَّا إلى صاحِبه ، وعِشْنَا فى ظِلالِ الإخلاصِ والمحبةِ والمودَّةِ والرَّحمةِ ، ولم أجد فيها ريحاً من ريبَةٍ فى سُلوكها ، وفى غُرَّةِ هذا الشهرِ ثَقُلَتْ عليها وَطْأَةُ الْحُمَّى ، فألزمَتْهَا فراشَها وجَعَلَتْهَا حبيسةَ مَضْجَعِها ، فأحضرتُ إليها نُطسَ الأطِباء ؛ رجاءَ أن تَبْرَأَ من عِلَّتِهَا ، وفى أثناء ذلك تاقتْ نفسُها إلى التُّفاحِ ، فبحثْتُ عنه فى سوقِ المدينة لعلِّى أَجِدُ تفاحةً واحدةً ؛ فذهب سَعْيِي أدراجَ الرياحِ ، ولم أعْثرْ على شيءٍ من التفاحِ ، فسألت عن مكانِهِ الذى يُتَوَقَّعُ وجودُه فيه ، فقيلَ لا وجودَ له الآن إلاَّ فى مدينة البَصرة فذهبتُ من فورى إليها ، وتحمَّلْتُ مَشَقةَ السفرِ ، وأحضرتُ ثلاثَ تفاحات ، نقدْتُ ثمنهاَ ثلاثةَ دنانير ، ولكنَّ زوْجِى زَهِدَتْ فيها بعد إحضارِها لتأثُّرِهاَ بالحمَّي التى لا تزَالُ تستبدُّ بها ، وتقاسِى من شِدَّتِها ، ثم صَرَفَ اللهُ عنها السوءَ وتماثَلَتْ للشفاء .

وبينما أنا مشغولٌ فى دُكانِى مرّ عَلَىّ عبدٌ أسوَدُ فارِعُ الطُّولِ يقلِّبُ



تفاحةً في يده ، فناديتُه عَسى أن يَدُلَّني على مكانٍ قريبٍ للتفاح لآخُذَ منه قَدْرًا أحتَفظُ به لزوجَتي إذا طَلَبَتْ ، وسألتهُ : من أينَ لكَ هذه التفاحةُ ؟ فابتسمَ طويلًا ، ونظرَ إليها قائلاً : هذه هديةُ حبيبتي . كنتُ غائبًا عنها ، ولما جئتُ من غَيْبَتي ذهبتُ إلى زيارتِها ، فألفيتُها مريضةً بالْحُمَّى ، وعندها ثلاثُ تفاحاتٍ أحضرَها زوجُها من البَصرةِ بثمنٍ مقدارُه ثلاثةُ دنانيرَ ، وقدْ أعطتْني هذه التفاحةَ .

وما انتهى العبدُ من قوله وانصرَف ، حتى دَهَمَني من الغَمِّ ما أَذْهَلَني وأَفقَدَني رُشْدِي ، ولم أدرِ بعد ذلك ما فعلتُه ؛ ولكني أذكرُ أني أَقفَلْتُ الدكانَ في التوِّ والساعةِ ، وذهبتُ إلى بيتي ، فوجدتُ بجوارها تفاحتَيْن ، فسألتُها عن الثالثة ، فقالت : لم أَطْعَمْ منها شيئًا ، ولا أدرى أين ذهبَتْ ، فوقع كلامُ العبدِ من نفسِي موقعَ الصدقِ الذى لا شكَّ فيه ، فأمْسَكْتُ سكينًا مُرْهَفَةً ، وجَثَمْتُ على صَدْرِها ، وذبحْتُها ، وهي مُستجيرةٌ مستسلمةٌ ؛ ثم قطعْتُها ولففتُها في إزارِها ، ووضعتُها في سَلةٍ ، وأودَعْتُها الصندوقَ ، وأَحْكمْتُ إغلاقَه ، وأخذتهُ على بَغلتي ، ورميتهُ بيدِي في نهر دجلة — فإذا أنصفتَني من نفسِي ، وأنصفْتَ زوجي مني ، وأنصفتَ عمِّي مني ومن زوجي ، فعَجِّلْ بقتلِي ، فإني أخشى عقابَ اللهِ يومَ القيامة .

فقال الخليفةُ : هاتِ ما عندَك ، وأَتمْ قِصَّتَك .

فقال : وبعد أنْ طرَحْتُها في النهرِ ، وابتَلَعَها الماءُ رجعتُ إلى بيتي ،

فوجدتُ أكبَرَ أبنائى يبكى ، ولم يكنْ يعلمُ من قتلِ أمِّه شيئاً ؛ فسألته : ما يُبكيك ؟ فقال : لقد أخذْتُ تفاحةً من الثلاثِ اللائى بجوار أمِّى ، ولما كنتُ بها فى الشارع قابلَنى عبدٌ طويلُ القامةِ أسودُ اللونِ فربَتَ على كتِفِى ، ومَسَح على رأسِى ، وسألَنى : من أينَ جئتَ بهذهِ التفاحةِ ؟ فقلت له : لقد أحضرَ أبِى ثلاثَ تفاحاتٍ من البَصرةِ بثلاثةِ دنانيرَ لأُمى المريضة ، وهذه واحدةٌ منها ، فاختطفَهَا منى ، وفَرَّ هارباً ، وإنى أخشَى أنْ تضربَنى أُمِّى إذْ أَخذتُ التفاحة على غيرِ علمٍ منها .

فعلمتُ أن ما قاله العبدُ كانَ محضَ افتراءٍ ساقَنى إلى جريمةٍ شنعاء ، وأَنِّى ظلمتُها بقتلِها ، فعكفتُ فى منزلِى مستسلماً إلى حزنٍ عميق .

ولما جاء عمِّى هذا الشيخ لزيارتنا أخبرتهُ ما كان من أمرى ، فقال : قد نفذَ القضاءُ ، ولا مَعْصِمَ لنا إلاَّ الصبرُ الجميلُ ، ولزِمَنى فى منزلِى خمسةَ أيام تتقَاذفُنا الهمومُ والأحزانُ ، وإنى أَستحلفُك باللهِ أيها الخليفة ، وبِشَرفِ أجدادِك — أن تُعَجِّلَ بالقصاصِ منى ، والثَّأرِ لهذه النفس البريئةِ التى حرَّم اللهُ قتلها إلَّا بالحق .

— فهزَّ الخليفة رأسَه ، وقال : لن أقتُلَ فيها إلّا ذلك العبدَ الأسودَ الأثيمَ .

— ثم التفتَ إلى جعفرٍ قائلاً : وعليك بإحضارِه وإلّا قُتِلْتَ فيه .

فخرجَ الوزيرُ فى حيْرةٍ وفزعٍ وارتباكٍ ، وفى همٍّ شديدٍ ، وحزنٍ عميقٍ ، وانْقَلَبَ إلى أهلِهِ يتعثرُ فى خطاهُ ، ولا يكادُ يرى للدنيا وجهاً ، وقال فى



نفسه : ما كُلُّ مرةٍ تسلَمُ الجرّة، ولكنى أَكِلُ أمرى إلى اللهِ ، فهو الذى يُدافعُ عن الذين آمنوا ، ويَتولَّى الصابرين . ولزم عُقْرَ داره ثلاثة أيامٍ كان قد أَمْهَلَهُ الخليفة إيّاها ، وفى اليومِ الرابع أحضرَ القاضىَ ليكتبَ وصيتَه فى حضرتِه ، وبينما هُوَ فى إعدادها إذْ حضرَ رسولُ الخليفةِ ليطلب وزيرَه فودَّع أهلَه واحداً فى إثر واحدٍ إلى أن كانت ابنتُه الصغيرةُ بين يديْه ، وكانت أحبَّ أولادِه إليه ، وحينما كان يضُمُّهاَ إلى صَدْره أحسَّ شيئاً مُستديراً فى جَيْبها فسألهَا عنـــه ، فقالتْ : تفاحةٌ أَعطانيهَا عبدُنا رَيْحان، منذُ أربعةِ أيام ، وأعطيتُه ثمنهَا دينارَيْن؛ فظهرَ على وجهِ الوزيرِ التغيُّرُ المفاجِئُ ، وأمر أَن يَحْضُرَ العبدُ على عَجَلٍ بين يديْه ، فسألَهُ عن التفاحة ، وكيف جاء بها ؟ فقصَّ عليه قِصَّتَها على حقيقتها ، فقامَ به جعفرٌ إلى الخليفةِ فَرِحًا ، وقال : لقد أَعْثرَنِى اللهُ على العبدِ الأسودِ اللئيم ، الذى كان سبباً فى قتلِ الفتاةِ ، وإشقاء زوجها وأبيها ؛ وها هُوَذا أَقودُه إلى سيدِى الخليفةِ ليَلْقَى جزاءَ مَكْرِهِ السَّيِّئ ، ولا يَحِيقُ المكرُ السَّيئُ إلا بأهلِه ، وقدَّمَ العبدَ إليه ؛ فاعترفَ بكلِّ ما جرى منه ، فأمرَ الخليفةُ بإعدامه وصَلْبه فى الساحةِ الكبرى ، على مشهدٍ من رعيته ، حتى يكونَ فى قتلِه وصَلْبه، عقابٌ له ، وموعظةٌ لغيرِه من الذين يَستَهينون بأعراضِ الناس ، ويَفْترُون عليهم الكذبَ ، ولا يُبالون عاقبةَ كذبِهم ؛ فينْجُمَ عن ذلك قتلُ النفوسِ البريئةِ ، وهدمُ بناءِ أسرٍ كريمةٍ .



نور الدين وأخوه شمس الدين

(١)

كان فى مصر مَلِكٌ مَهِيبُ الطَّلْعة ، مَرْهوبُ السلطان ، قوىُّ البأس ، عزيزُ الجانب ، شديدُ العريكة : يُعينه فى تصريفِ شئونه ، وتدبيرِ أموره — وزيرٌ حَنَّكَتْه السِّنون ، وأكسبه طولُ عمرِه بصرًا ناقدًا ، وخِبرة واسعةً ، ودِرَايةً صادقةً .

وكان له ولدان : أحدُهما شمسُ الدِّين ، والآخرُ نُورُ الدِّين ، وكان وَلَدَاه هذان أُعجوبةَ الزمان ، فى حسن التّقويم ، ورائعِ الجمال ؛ وفاق أصغرُهما نورُ الدين أخاه الأكبرَ فى بهاءِ طَلعتِه ، ونَضرة وجهِه ، وإشراقِ محاسنِه ، وجمالِ قَسَماتِه : فأَحبّه الناسُ أكثرَ من حبِّهم لأخيه ، ووفدوا إليه ، وجالسوه ، والتفوا حَوْلَه .

ظَلّ هذا الوزيرُ يُعاون الملكَ ، على خيرِ ما تكون المعاونة ، وتصرِّف شئون الدولة على خير ما يكون تصريفُ شئونِ الدولة ؛ ولكن سنَّه كانتْ قد تقدمتْ ، فدنا أجلُه ، ولبَّى نداءَ ربِّه ، فابتأسَ السلطانُ بفُرْقتِه ، وحزنَ عليه حُزناً شديداً .

ورأى من الوفاء له أن يعطِفَ على وَلَدَيه شمسِ الدين ، ونورِ الدين ، وأن يُسنِد إليهما وزارةَ أبيهما ؛ فاستدعاهما إليه ، واسْتَوْزَرَهُما ، فحمدَا له عطفَه ، وأقاما مأتَمَ أبيهما مدةَ شهرٍ كامل .

وكانا يتناوبان العملَ فى الوزارة ، أسبوعا فى إثْرِ أسبوع ، ولا يسافر السلطانُ إلا إذا كان معه واحدٌ منهما ، وكانا يتناوبان هذه السَّفَراتِ معه . كلٌّ منهما يسافِر مرة ، ويبقى الآخرُ يُعِدُّ الشئونَ ، حتى يعودَ المسافران .

وذات ليلة أُنْبِئَ شمسُ الدين أن السلطانَ سيَصْحَبُهُ بُكْرةَ غدِه ، فى سفره إلى جهةٍ مَا من جهات مُلكه . وفى تلك الليلةِ جلس الأخوان يتحدثان .

شمس الدين : أودُّ أن يكونَ زواجُنا فى ليلة واحدة .

نور الدين : نعم ما وددتَ فافعلْ ما أردتَ ، وستجدنى إن شاء الله طائعاً ولا أعصِى لك أمراً .

شمس الدين : هبنا تَزَوّجْنا فى ليلة واحدة ، وشاء القَدَرُ أن وَضَعَتْ زوجتانا فى ليلة واحدة وقد ولدتْ زوجتُك غلاماً ، ووضعتْ زوجتى

أنثى ، فهل ترضى أن يكون ابنُك زوجاً لابنتي ؟

نور الدين : وكم ديناراً تريد مهراً لابنتك ؟

شمس الدين : ثلاثة آلافِ دينار ، وثلاثة بساتين ، وثلاث ضياع ، وبغير هذا لا ينفذ الزواج .

نور الدين : لقد أبْعدْتَ فى التقدير ، ونسيت أننا أَخَوَان ، ونعملُ وزيرَيْن فى منصِب واحد ، وكان الأجدرُ بك وأنتَ الأخُ الأكبرُ ، والولدُ والبنتُ اللذان سننجبهما وَلَدَاك — أنْ تُقدِّمَ ابنَتَك هديةً لابنى ، الذى سيُخَلِّدُ ذكرانا ، كما خلَّدْنا ذكرى أبينا ، ولكنك سرتَ معى فى هـذا الأمرِ حسبَ القولِ السائر : « إن أردتَ الطردَ فارْفع الثمن . . . »

شمس الدين : أراك نقصْتَ من حقى ، إذ فضَّلتَ ابنَك على ابنتى ، وقد بَدَر منك ما يدل على أنك تجهلُ حقيقةَ نفسِك ، وأنك لا تعرفُ قدرى ، وتحاولُ أن تَحُطَّ من قدرى ، وتضعَ من مَقَامى ، إذ تذكُرُ الوزارة ، وأنك فيها مثلى ، وما دريتَ أنها معقودةٌ لى ، وما أشركْتُكَ إلا شفقةً منى ، ولِأَسْتعينَ بك بعضَ العون فى بعضِ الأعمال ، وما دام هذا شأنَك ، فلتَقل ما تشاء ، ويميناً لن أُزوِّجَ ابنَك من ابنتى ، ولو أعطيتَنى ملءَ الأرضِ ذهباً .

نور الدين : شأنَك وما تريد ، فلن أرتضيَهَا لابنى زوجةً ، ولو سُقتَ معها وزنَها ذهباً .

شمس الدين : ومَن يرتضى ابنَك بعلا ؟ ولوْلا أنى على سفرٍ غدًا لأَرَيْتُك من آيات العِبَر ما فيه لمثلِك مُزْدَجَر ، وبعد عَوْدِى القريبِ ، يفعل اللهُ بك ما يريد .

— وذهب كلٌّ منهما إلى مضجعِه مُنْتَحِياً به من البيت ناحية .

وفى الصباحِ كان شمسُ الدين فى حاشيةِ السلطانِ إلى الجزيرة والأهرام .

— أما نورُ الدين فقد باتَ على أحرَّ من الجمر غيظاً وكمداً ، ولما طلع الصبح ، وأقام صلاةَ الفجر ذكر أَخاه وقسوتَه ، وتحقيرَه من شأنه ، فاستولتْ عليه وساوسُ كثيرة ؛ فأخذ يَدُورُ بفكرِه هنا وهناك ، حتى استقرَّ رأيهُ على أن يتركَ هذه البلادَ ، ويرحلَ منها إلى بلاد أخرى غيرِها ، وقَدَّرَ أنَّ فى السفر عناءً ومشقة ، ولكنَّ ما يُلاقيه من عناء السفر ، وما يكابدُه من أهوالِه ومشقاتِه أهونُ عليه من أن يبقى مع أخيه يُتعبه ويُذله ؛ وقَدَّرَ أَنَّهُ إذا سافر فإن أخاه سيقدُره ، وسيكون عزيزاً عنده ، وسيُلِحُّ عليه فى البقاء موفورَ الكرامة .

— ولم يكد ينتهى من تفكيرِه حتى نهضَ إلى خزَانتِه ، وأخرج منها خُرجاً ملأَه ذهباً وأمر غِلمانه أن يُسرِجُوا بغلةً تقوى عَلَى السفر الطويل فى نشاطٍ وسرعة ، ويُجهزوها بأنواعِ الزينة ، حتى تبدوَ كأنها عروسٌ مَجْلُوَّةٌ ، وأن يضعوا الخُرجَ عليها تحت بساطٍ حريرىّ من فوقه سجادة ؛ ثم قال لهم : إنى أُريد أن أتفرجَ من ضيقٍ فى صدرى ، وهمٍّ

يُساوِرُنى بالشُيوخ خارجَ المدينة ، وفى أنحاء القليوبية ، ثلاث ليالٍ ، فلا يَتبعْنى منكم أحدٌ

ركب بغلته ، وأخذ سَمْته إلى الشرقية ، حتى دخل بلبيس ، وقد انتصب ميزانُ النهار ، وبعد أن أطعم بغلته ، وأكل غِذاءه ، وتزودَ ببعض ما يحتاج إليه من الزاد — ركب الطريق ، وكان كلما قطع مرحلةً استراح ، ثم استأنف السيرَ ، وظَلّ كذلك حتى انتهى به السير إلى مدينةِ القُدس ، فاستراح فيها ثلاثةَ أيام ، ثم عاد واستأنف المسيرَ حتى مدينةِ حَلَب . وهناك نزل فى خانٍ من خاناتها ؛ وبعد سبعةِ أيام من نزوله ، ركب بغلتَه ، وسار هائماً ، لا يدرى أين هو ذاهبٌ ، حتى وصل إلى مدينةِ البَصرة ، وكان قد دخلها ليلا ؛ فسأل عن خانٍ يبيت فيه ، فدَلَّه الناسُ على خان ، فذهب إليه .

— دخل الخانَ ، وأخذ الْخُرج ، وفرش السّجادة ، وأمر خادمَ الخان أن يُرَوِّضَ البغلة ، ويجولَ بها فى شوارعِ المدينةِ هادئاً مُتأَنِّياً حتى يجفَّ عَرَقُها .

وكان وزيرُ البَصرة يُطِلُّ من نافذةِ قصره ، فرأى البغلةَ مُطَهَّمَة ، وخالها بغلةَ وزيرٍ أو مَلِكٍ ؛ فأمر أن يُؤْتَى بالخادمِ ، والبغلة التى معه ؛ فحضر وقَبَّلَ الأرضَ بين يديْه ثم سأله الوزيرُ — وكان شيخاً كبيرًا — :

مَنْ صاحبُ هذه البغلة ؟ وما صفتُه ؟

فأجاب شابٌّ فتيٌّ ، بهيُّ الطَّلعةِ ، عَذْبُ الشمائل ، يكسوه الوقارُ والمهابة ؛ من أبناء التجّار .

فانتفض الوزيرُ قائماً ، وركب إلى الخان جوادَه ، فلما رآه نورُ الدين مقبلا عليه بعد استئذانِه ، قام إليه وحيّاه أطيبَ تحية وأحسن لقاءه ، وأجلسَه تحَفُّه التَّجِلَّةُ والاحترام .

الوزير الشيخ : من أين أقبلتَ يا ولدى ؟ وماذا تريد ؟

نور الدين : قدمتُ يا مولاى من مصر ، وكان أبى وزيرًا لسلطانها ، ثم مات ؛ وأخذ يقصُّ عليه قصته إلى أن لقِيَه ، ثم قال : وقد آليتُ على نفسى ألا أرجعَ إلى مصرَ ، حتى أَسِيحَ فى الأرض ، عامرِها ، وغامرِها ، وأقفَ على ما فيها من غُيُوبٍ وأسرار .

الوزير الشيخ : ما أشبهك بأبيك ! ولقد اجتمعتُ به فى البيت الحرام ، أيامَ الحج المباركة ، وحدّثنى عنك ، وعن أخيك ، وكثيرًا ما كان يدعُو لكما بالسعادة والعزة ، تغمَّده اللهُ برحمته ، وأرجو ألا تُطِيعَ نفسَك يا ولدى فتهلِك ، فالسفرُ مَشقة ، يصادف الإنسانُ فيه ما يُتعبه ، ويُنَغِّصُ عليه حياتَه ؛ ويُحَبِّبُ إليه الموتَ ، وخاصةً إذا كان وحيدًا ، وليس له هادٍ يَهديه الطريقَ ، ولا دليلٌ يرشده إلى الخير ؛ وأخشى عليك يا ولدى من الأيام وبلائها .

ثم حَبَّب إليه أن يَصحبه إلى بيتهِ ، فنزل على رغبته ، وانتقل إليه ، ومعه متاعُه وبغلتُه ، فأكرمَ الوزيرُ مثواه ، وأحَبَّه حُبًّا جَمًّا .

وبعد أيامٍ من مُقامِه ، قال له الوزيرُ : لقد كبرتْ سنّى ، ودنا أجلى ، ولم يهبْ لى اللهُ إلا بنتاً ، تقرُبُ منك حُسناً ، طلب إلىَّ يدَها كثيرٌ من رجالات الدولة وكبرائها ، وذوى اليسار فيها — لأبنائهم ، فلم أستجبْ لدعوتهم ، وقد نزل حُبّى إياك ، منزلة السُّوَيداء من القلب ، فهل لك أن تقبلَ ابنتى جاريةً ، على أن تكونَ لها بعلا ؛ إنك إن قبلتَ أنبأتُ سلطانَ البَصرة أنك ابنُ أخى ، ووثّقتُ به صلتَك ، حتى تكون وزيرًا بدلا منى ، ولزمتُ بيتى لكِبَر سنى ، وعدم قُدرتى على الاضطلاع بتدبير شئون الدولة .

— وبعد إطراقةٍ قصيرة ، قال نور الدين : سمعاً وطاعة ، وأحمدُ الله أن جعَلَك والدًا لى ، يُحبُّنى ، ويعطفُ علىَّ ، ويُبادلنى وُدًّا بوُدّ ، وتقديرًا بتقدير .

أشرق وجهُ الوزير سرورًا ، أضاءتْ له أنحاء المنزل ، وأمر غِلمانه أن يُهيِّئُوا حجرةَ الجلوس ، لرجالات الدولة وأمرائها ، والبارزين فيها من أقربائه وأصحابه .

— وحضر أولئك لتلبية الدّعوة ، ولما كَملَ جَمْعُهُمْ وقف فيهم قائِلا :

كان أخى وزيرًا بمصر ؛ ولما وهب الله له ولديْن أوصانى أن أزوجَ ابنتى من أحدِهما ، ولما طاب لها الزواجُ أرسل إلَىَّ ابنَهُ لانَفِّذَ وَصيّته ، وهو هذا الشابُّ الفتىّ الجالسُ بينكم ، وقد رأَيت أن أُمَلِّكه إياها هذه الليلة ، فَدَعوْتكم لذلك .

— فقالوا : نعم ما فعلتَ ، وبُورك له فيها ، وبُورك لها فيه ، وتمنَّوا لهما أن يعيشا عيشةً رغدة سعيدة هانئة ، وأن يُنجِبا بنين وبناتٍ تقَرُّ بهم عيونهما ، وتَجْمُلُ بهم حياتُهما .

ثم شربوا شرابَ الزَّواج ، وانصرفوا إلى سبيلهم

أما نورُ الدين فقد دخل بزوجه .

ولما رجع شمسُ الدين من سفره ، ووقف عَلَى أمر أخيه ، ساوَرَه عليه هَمٌّ ثقيل ، وقلقٌ كثير ، ونَدمَ عَلى ما أغْلَظَ فى قولِه ، وظنَّ أنَّهُ عِلَّةُ هذا الفِراق ، وَخَشِيَ ألَّا يكونَ من بعده تَلاَق ، ورفع إلى السلطان نَبأه ، فأصدر أمره فى الأقاليم إلى نُوَّابه بالبحث عنه فى كلِّ مكان ، والجِدِّ فى طلبه أنَّى كان ، ولكن ضاع كلُّ جهدٍ سدى ، إذ فات الأوان ، وضم نورالدين قطرٌ آخرُ من الأقطار ، فأخْلَدَ إلى اليأس والقُنوط ، مُقَرِّعاً نَفْسَه عَلَى ما فَرَّط فى جَنْبِ أخيه ، وبعد مدة طويلة نَسِيَ فيها أخاه بعضَ النسيان ، وخَفَّتْ حِدَّةُ قَلَقِهِ وهَمِّه — تزوَّجَ بينت لتاجر مصرى ، وشاء القدرُ أن يكون دخولُه بزوجه فى مصر ، ودخولُ أخيه بزوجه فى البصرة فى ليلة واحدة ، وأن يكون حَمْلُ الزوجين فى تلك الليلة نفسِها ، ووضعت زوجُ شمسِ الدين أنثى وسماها حياةَ النفوس ، ووضعت زوجُ نورِ الدين ذكرًا وسماه حَسَنًا بدرَ الدين ، وكان لا يفترقُ أحدُ المولودين عن الآخر فى رَوْعَةِ الجمال ، وبهاء الطلعة إلا أن هذا ذكر ، وتلك أنثى ، وذلك تقدير العزيز العليم .

(٢)

صَحِبَ نورُ الدين حماه الوزيرَ إلى السلطان بالبَصرة ؛ فلما مَثَل بين يديْه أُعْجِبَ بفصاحة لسانِه ، وقوة بيانِه ، وحلاوةِ حديثِه ، وحُضُورِ بديهتِه ، وتَوَقُّد قريحته ، وتوثّب الفطنة فى عقله ؛ فسأل عنه وزيرَه ، فأطْلَعَه على جملة أمرِه ، فعجبَ السلطانُ أن يكون هذا ابنَ أخى الوزير ، ولم يعلم من أمره شيئاً ، فقال :

أعز الله مولانا السلطانَ ، وأدام عزَّ المُلْكِ بدوام عزه ، إنه كان مع أبيه بمصر ، ولما مات أبوه تولى ابنُه الأكبرُ الوزارةَ من بعده ، واستدعيتُ الأصغرَ هذا ، وزوَّجْتُه ابنتى تنفيذاً لوصيَّةِ المغفورِ له أخى .

فقال السلطانُ : أبقى الله حياتَك ، ومدَّ فى عمرِك ، وعظَّم أجرك فى أخيك ، وجعَل الخيرَ فى ابنِه ، وبالرفاءِ والبنين زواجُ ابنتِك .

فقال الوزير : شكرَ اللهُ لمولانا السلطانِ عظيمَ فضلِه . وجميلَ إحسانِه

وجعل الوزيرُ يصطحبُ نورَ الدين كلما ذهب إلى السلطانِ ليُريَه العجبَ من آياتِ ذكائه ، واستقامةِ قوله ، وسموِّ تفكيرِه ، وعظيمِ ولائهِ وإخلاصِه ؛ فيمهدَ بذلك السبيلَ إلى أن يرفعه السلطانُ إلى مرتبةِ الوزراء ، وتمَّ له ذلك .

فجعله أحدَ وزرائه المُقدَّمين عندَه ، المقربين إليه .

وما زال الوزيرُ نورُ الدين يتقدم الوزراءَ بفضله ، وثاقب رأيه حتى

أصبح أحَبَّهم إلى السلطان ، وأقربَهم مودةً ومنزلة ؛ فلا يستغنى عنه فى عظيمِ الأمور وصغيرها ، وعامِها وخاصِها ، وقد تفتحت له أبوابُ الرزقِ الوفيرِ فَملَكَ المزارعَ والبساتين ، والدورَ والقصورَ ، وسارتْ القوافلُ ببضائع تجارتهِ مُشَرِّقةً ومُغَرِّبةً ، ذاهبةً وجائية .

وفوق أنه كان أثيرًا عند السلطان ، كان كذلك ينعمُ فى ظلال زوجته بحياةٍ منزلية سعيدة ، ورزقهُ الله ولداً ، وسماه حَسَناً .

ولما بلغ ابنُه حسنٌ أربعَ سنين تُوُفِّىَ جدُّه الوزيرُ البَصرىُّ ففقدَ بذلك أعظمَ الناس رعايةً له ، وقياماً بشئونه ، وخلفه والدُه فى ذلك .

حتى بلغ أشُدَّه ، فوكَلَ أمرَ تعليمه وتحفيظه القرآنَ الكريمَ إلى خيرِ الفقهاءِ بالبصرة فقام الفقيهُ بما وُكِلَ إليه فى قصر أبيه الذى اتَّسع كثيراً ، حتى كان فيه كلُّ شىءٍ لِحَسَنٍ ، ففيه المدرسةُ التى يُلقَّنه فيها أساتذتُه العلمَ ، وفيه ملاعبُـــه التى يمرحُ فيها ويلعب ، وفيهِ متنزهاتُه بين الحدائق والأشجار ؛ لذلك لم يكن حَسَنٌ فى حاجةٍ إلى مغادرتِه ، فبقى مقيما فيه لا يبرحه فى ليلٍ أو نهار .

وذاتَ يومٍ ألبَسه أبوه حلةً فاخرةً ، وأخذه معه إلى السلطان ، فَبَهَرَ بحسنه مَنْ فى القصر جميعِه ، ومَلَكَ على السلطان فؤادَه ، فأمر أن يحضرَ إليه كلَّ يوم فى صُحبةِ أبيه ، فكان ما أمَر به .

ولما بلغ حَسَنٌ من العمرِ خمسة عشر عاماً ، ضَعُفَ والدُه نورُ الدين ، وأحَسَّ دُنُوَّ أجلِه ، فأجْلَسَهُ بين يديْه ، وأوصاه بالناس إحساناً ، وأن

يبتغى فيما آتاه الله الدار الآخرة ، ولا ينسى نصيبَه من الدنيا ، ولا يبغى الفساد فى الأرض ، وأن يأمنَ الناسُ بوائقَه ، ويُحِبَّ لهم ما يُحبُّه لنفسه ؛ ثم أَطْلَعَهُ على كل ما جرى له ، وأَمْلَى عليه فى قرطاسٍ ذلك جميعه ، وتاريخَ قدومِه البصرةَ ، وزواجِه من أمه ، وحملِها ووضعِها إياه ، وقال :

احفظ هذا القرطاسَ ، فإنْ أصابَك مكروهٌ ، فاذهبْ إلى عمِّك بمصر ، وأَعْلِمْهُ أنى متُّ غريباً ، أتلهَّفُ إليه شوقاً ، فصدع حسَنٌ بأمر والده ، وطوى القرطاسَ ، ولفَّ عليه خرقة مَطليَّةً بالشمع ، وخاطها بين الظِّهارةِ والبطانة من ثوبه .

جعل المرضُ يشتدُّ وطأةً بنور الدين ، حتى جاء أجلُه ، فقضى نحبَه ، وأسْلَمَ روحَه إلى بارئها ، فدفنه ابنُه فى حفل رهيب ، وحزن شامل . وانقطع عن السلطان شهرين كاملين ، لازم فيهما بيتَه ، فصفا جوُّ الوزارة لوزيرٍ كان ينافسُ والدَه الرَّاحِلَ لدى السلطان ، واتخذ من انقطاعه سبيلا إلى الوشاية به ، فأمر السلطانُ بمصادرةِ أملاكِ الوزيرِ الراحلِ نورِالدين ، والقبضِ على ابنه حسَنٍ نور الدين ، ليحكمَ فيه بما يشاء ، وكان من بين العسكر مملوكٌ لأبيه ، فما عَلِمَ جَلِيَّةَ الأمرِ ، حتى أسرع إلى حسَنٍ فى بيته ، وقال له : الآن انْجُ بنفسك ، واتركْ كلَّ شىءٍ يَعُوقك ، وإن كنت فى أشد الحاجة إليه . وأَعْلَمَهُ أمرَ السلطان فيه ، وفى ميراثه عن أبيه .

فتنكرَ وفرَّ هارباً ، وكان يستمعُ من الناسِ ما يرددونه من أمرِ السلطان

فى حزن وأسى ، من مصادرة الأملاك ، والقبض على حسن لقتله ، فكان ذلك يزيده جداً وكدحاً فى الهرب والفرار ، ولكنه مَرَّ على قبر أبيه ، وجلس عنده ، يدعو له بالمغفرة ، ويسأل الله العونَ والنجاة :

وبينما هو جالس إذ قدم عليه يهودىٌّ من البصرة ، فقال له : مالى أراك متغيرَ الحال ؟

فقال : رأيت فى المنام أن المغفورَ له والدى ، يعتِبُ عَلَىَّ عدمَ زيارته ، فلما استيقظتُ جئتُ مُسرعاً قبل أن تَشغَلَنى الأعمالُ ، وينقضىَ النهارُ ، فيفوتَنى التعجيلُ بها .

فقال اليهودىُّ : إن أباك له بضائع قادمةٌ إلى البَصرة فى مراكب ، وقد ورد بعضُها ؟ فبِعْنِى إياها بألفِ دينار ، فباعها وتَقَدَّهُ الثمن ، وناوله عقداً بالبيع ، ومضى اليهودىُّ لسبيله

لَعِبَتْ بحسَنٍ الأفكارُ ، فألهَتْه عن السير ، حتى غَشِيَهُ الليل ، وغلبه النومُ فاستلقى على ظهره ، مسلماً إلى الله وجهَه ، مفوضاً إليه أمرَه . وكانت المقبرةُ عامرةً بالجنِّ المؤمنين ، فمرت به جِنّيةٌ فى أثناء سيرها ، فوقفتْ مُعْجَبَةً بباهرِ جمالِه ، وقالتْ : سبحان الله ! ما إخالُ هذا الشابَّ إلا من الحور العين ؛ ثم طارتْ فى الجو كعادتها ، فالتقتْ بعفريت وحيَّتْه تحيةً طيبة ، فحيّاها بأحسنَ منها ، ثم سألته : مِن أينَ أقبلتَ ؟ فقال : من مصر ؛ فقالت : هل لك أن تأتىَ معى لأُريك شاباً

فى مقبرة البصرة ، لم ترَ عينى أجملَ منه ، ويُخيَّلُ إلىّ أنه من الحورِ العِين .

فطارا إليه ، وما رآه العفريتُ حتى ابتدرَها قائلا : سبحانَ من ليسَ كمثلِه شىء ! لقد رأيتُ قبلَ الآن بمصر بنتَ الوزيرِ ، وإنها لَتُشبهُ هذا الشابَّ ، حتى كأنها هو ، أو كأنه هى ، وقد خطبَها المَلِكُ من أبيها ، فاعتذر بما يعلمهُ الملكُ مما جرَى بينه وبين أخيه ، وأنَّهُ لهذا حلف ألا يُزَوِّجَ ابنتَه إلا من ابن أخيه ، وقد عَلِمَ أنه أنجبَ من بنتِ وزيرِ البصرةِ ، فهى لذلك موقوفةٌ عليه ؛ ثم إنه كتب بذلك وصيةً ، خشيةَ أن يأتيه أجله قبل تنفيذِ رغبتِه ، وأوضحَ فيها تاريخ زواجِه ، وحَمْلِ زوجِه ، ووضعِها .

ولكن الملكَ لم يَرُقْ هذا فى نفسه ، فثارتْ ثائرةُ غضبه ، وأقسم أن يُزَوجَها من أحْقَرِ الناسِ عنده .

وكان لدى السلطان سائسٌ أحدبُ ، مقوسُ الظهرِ ، بارزُ الصدرِ ، جاحظُ العينين ، قصيرُ القامةِ ؛ وهو فى جملته إنسانٌ مشوهٌ قبيحُ المنظرِ ، دميمُ الخلقةِ ، حقيرُ الصنعةِ ؛ لأن سياسةَ الخيلِ كانت من المهَنِ التى يحتقرونَ صاحبَها ؛ فاجتمعتْ لهذا الرجلِ الدمامةُ من أطرافها .

أمر الملكُ أن تُزوَّجَ الفتاةُ من هـذا السائس ، وأن تزفَّ إليه فى جمع حاشد ؛ وقد تركْتُ الأحدبَ يُزَفُّ الآنَ ، والفتاةُ جالسةٌ تبكى حظَّها ، وتندبُ أباها الذى حرم عليه السلطانُ حضورَ زفافها ، ولكنَّ

البنتَ أيتها الجنيةُ أجملُ من هذا الشابِّ . فقالت : يحسنُ أن نحملَه إليها ، لنرى كيف تَشَابَهَا خَلْقاً مع بُعْدِ الدارين ، ونعملَ على إنقاذِ هذه الفتاةِ ، ونجعلها لهذا الفتى .

دخل العفريتُ تحتَه وحَمَلَه ، وطار فى الجو به ، والجِنّيَّةُ بحذائه تحرُسُه ، حتى حطَّه بمصر على مَصطبة ، ونبَّهَهُ فاستيقظ ، فوجد نفسَه فى أرضٍ غيرِ أرضِ أبيه ، فبادره العفريتُ وقال له : لقد جئتُ بك إلى مصرَ ، وأردتُ أن أقدمَ لك شيئاً ينفعُك ، ابتغاء مرضاة اللهِ ، فاستمع لما أقول ، ولا تعص لى أمرا ، واحمد اللهَ على نجاتِك من القوم الظالمين :

— واصْطَحَبَه معه لحضور عُرسِ الأحدبِ ، وقال له :

خذ هذه الشمعةَ ، وقفْ بجوارِ العروسِ الأحدب ، ولا تخشَ أحداً ؛ فإذا مَرَّ بك الراقصاتُ والمغنياتُ — فضعْ يدَكَ فى جيبك ، وانقُدْهُنّ ما تجدُ فيه من دنانير ، فى سخاء وكرم ؛ واعلم أنك لا تضع يَدك فى جيبك إلا وَجَدْتَه مملوءا ذهباً ، فلا تخشَ له نفادًا ، وهذا كلُّه بحول الله وقُوَّتِه

جلس حَسَنٌ بين الناس ، ثم ساروا جميعاً يَزُفُّون الأحدبَ ، إلى بيتِ الوزيرِ ، وكلما مَرَّتْ المغنياتُ والراقصاتُ بحَسَنٍ ، أعطاهن ما معه من الذهب ، حَفْنَةً حَفْنَةً ، فأحْبَبْنَه لماله وجماله ، حتى وصلوا إلى بيت الوزير ، وهناك مُنِع الناسُ من الدخولِ ، ولكنَّ المُغَنِّيَاتِ والراقصاتِ



أَصْرَرْنَ على أن يدخُلَ حَسَنٌ معهنّ ، وأن يَحضُرَ زفافَ العروسين وجَلوتهما ، فقد غمرهُنّ بإحسانه وذَهَبه .

ودخل معهن بَهْوَ الزفاف ، فوجد نساء الوزراء والأمراء والحجَّابِ والأعيانِ والوجهاء صفين في يدِ كلٍّ منهن شمعةٌ موقدة ، فلما رأينَهُ أكبَرْنه ؛ وقُلْنَ : ما هذا بشرٌ إنْ هذا إلا مَلَكٌ كريم ؛ وأخذ مكانه بينهن ممسكا شمعةً موقدة مثلهن ، وكان مَوضِعَ إعجابِهن وغبطتهن ، كما كان الأحدبُ محطَّ سُخريتهن وغمزهن ولمزهن ، وقُلْنَ : كيف لا يكونُ هذا الشابُّ الجميلُ زوجاً لهذه الفتاة الجميلة ؟ ! وكأنهما لم يُخْلَقَا إلا ليكونا زوجَيْن مُتحابيْن ، ليستمتعَ كلٌّ منهما بصاحبه ، وكيف تُنَغَّص حياةُ هذه الفتاةِ بذلك الأحدبِ القبيح ، الذى تَشْمَئِزُّ منه النفوسُ وتفزع ؟ ! ألا لعنةُ الله عَلَى هـذا الظلم وأهلِه ؛ ولقد أثار إعجابَهنّ بحسَنٍ تلك الدنانيرُ التى كان يُلقيها فى دُفُوفِ المغنيات والراقصات ، حَفْنَةً حفْنَةً .

ولما انتهت الجَلْوةُ خلا البَهْوُ إلا من حَسَنٍ والأحدب ، فالتفتَ إليه الأحدبُ قائلا : لقد تفضَّلْتَ علينا الليلةَ بكرمك ، والآن ليست لك حاجةٌ ، فلِمَ لمْ تخرجْ وتَذْهبَ إلى سبيلك ؟ فقام حَسَنٌ ، ومشى حتى كان أمامَ بابِ البهو فاستوقفه العفريتُ ، وأمره أن يَدخل البهوَ ثانيةً ، وإذا ما خرج الأحدبُ إلى المرحاضِ ، فعل ما أمره به ، فاستجاب حَسَنٌ له .

ذهب الأحدبُ إلى المرحاض فظهر له العفريتُ فى شكل فأر ، وصاح : زيق ، زيق ؛ فَحَسِبَهُ فأراً حقيقياً ، ولم يخرجْ عن ثباته واطمئنانِه ،



فربض الفأرُ أمامه . وَصاح : زيق ، زيق .

وأخذ يَكبر ويَكبر ، حتى كان قِطًّا كبيراً جعل يَمُوء ، ويَمُوء .
فحدَّقَ إليه ببصرِه فَزِعًا .

فجعل يَكبر ، ويَكبر حتى صار كلباً ، كاشِراً عن أنيابه ، فحُبِسَتْ أنفاسُ الأحدبِ فى صدره .

ثم جعل يكبر ، ويكبر ، حتى تغير إلى عِجْلٍ له قَرْنَان ، كأنهما حَرْبتان . .
قال له : من أذِنَ لك أن تتزوَّجَ معشوقتى ؟ فاستعطفه قائلا : لقد تزوَّجتُها على الرغم منى ، والحمد لله الذى ساقك إلىَّ ؛ لتخلِصَنى منها ، فإنى لستُ لها ، ولستُ من أَهلها ، وإنى أَرتقبُ الساعةَ التى أَفِرُّ فيها من هذا الزواجِ بفارغ الصبر ولولا أنى سمعتُ من الفقهاء أَن منْ قتل نفساً بغير نفس ، فكأنما قتلَ الناس جميعاً ، لقتلتُ نفسى قتلا ، فِراراً من هذا الزواج الذى لا يتكافأُ فيه الزوجان ؛ فأينَ بنتُ الوزيرِ من أحدبَ حقيرٍ مثلى ؟ !

والآن أَتوسلُ إليك أن تحتسبَ هذا الصنيعَ عند الله ، وتفكَّ ما بينى وبينها من رباط الزوجية ؛ فأجابه العفريت : ما دمت مُكرهاً على هذا الزواجِ فمن العدلِ ألا أتعرضَ إليك أنتَ بأذى أو مكروهٍ ولهذا قد أصبحتَ فى أمان منى ، ولكن عليك أن تدلَّنى على مَنْ أكْرَهَك على هذا ، حتى أريه الأَمَرَّيْنِ ، وأُذيقَه العذابَ ضعفيْن .

فقال الأحدبُ : لا داعى إلى ذكرِه ، والله يعفو عن كثير ، ورجائى أن تخلِّصَنى من هذا الزواج الذى كلُّه ظلمٌ وجورٌ وقسوةٌ .

فقال العفريت : وما رأيُك إذا عفوتُ عنك ، وعمَّنْ أكْرَهَك ؛ وتركتُ لك هذه الزوجَ تنعَمُ بها بقيةَ حياتِك ، فقد تكونُ ذا هَوًى إليها .

فقال الأحدبُ : إن الجحيمَ أن تبقى هذه الزوجُ فى عصمتى ، فإذا فرَّقْتَ بينى وبينها كان لك أجرُ المجاهدين ، وإذا أردتَ أن تجعلها هديةً لأحدٍ من النَّاس ، فليس لها إلا فتى يشبهها جمالا وحسناً ، حضر حفلةَ زفافها وجَلوتِها ، فإذا أحضرْتَه الآن من حيث هو ، وزوَّجْتَه منها كان لك أجرُ الصابرين .

— فصار العفريتُ رجلا ، وقال له : إذنْ فَلْتُنَظِفْ نفسَك ، ولتخرجْ إلى البهو ، فستجدُنى وتجد الفتى . وهناك نفعلُ ما رأيت . فقال الأحدبُ : سمعاً وطاعة .

وكان العفريتُ قد أمر حسناً أن يدخلَ على حياةِ النفوس ويُفْهِمَها أنه زوجُها ، وأن أباها ما فعل هـذا إلا ليصرفَ عنها عيونَ الحساد ، وإن الأحدبَ سيطلقُها الآن ، وبعد ذلك يُعقد الزواجُ على غير عِلْمٍ من أحد ؛ حتى تكونَ فى مأمَن من كيدِ الكائدين .

فقالت : الحمد لله الذى أذهبَ عنى الحَزَنَ ، ومتى يكون ذلك ؟

فقال : الآن ، وفى هذا البهوِ ، فتفضلى ننتظر القاضىَ ، والأحدبَ .

وما كادا يجلسان حتى دخل عليهما العفريتُ فى هيئة قاض ، والأحدبُ بعد أن تطهر ؛ وما هى إلا لحظة حتى كان الطلاقُ والزواجُ ،

لأن الأحدبَ لم يكن دخل بها . وكان الشاهدان القاضى والأحدب ، ثم ذهب كلٌّ منهما إلى سبيله

أما حَسَنٌ فقد ذهب هو وزوجُه إلى فراشهما ، وخلع عمامتَه وجُبَّتَه والصرَّة التى بها ألفُ دينار ، ولم يبق على جسمه إلا قميصٌ رقيق ، وأراد اللهُ أن تحمل زوجُه هذه الليلة .

وقبل مطلع الفجر ، قال العفريتُ لِلجِنِّيَّةِ : ادخلى واحملى حَسَناً حتى نُرجِعَه إلى المقبرة كما كان ؛ فحملتْه الجِنِّيَّةُ ، وطارتْ به ، والعفريتُ بجوارها .

وكان الجوُّ فى ذلك الوقت تتطايرُ شُهُبُه ، فأصاب العفريتَ شهابٌ أرداه قتيلا ، فخافت الجِنِّيةُ على حسنٍ أن يُصابَ بمكروه فنزلتْ به حيث أصيب العفريتُ ، وكان ذلك أمام مدينة دمشق ، وتَرَكَتْه على الأرض ، مُلْقًى عَلَى ظهرِه فى سُباتٍ عميق .

بدا الصباحُ ، وخرج الناسُ من المدينة لشئونهم ، فألْفَوْا هذا الشابَّ نائماً . فراعهم جمالُهُ ، وذهبتْ بهم الظنونُ فيه كُلَّ مذهب ، ثم سألوه : أين كنت ؟ ! وإلى أين تقصد ؟ ! فقال :

كنتُ فى مصر ، وقبلها كنتُ فى البَصرة هذه الليلة، فرَمَوْه بالبَلَه والجنون ، وتركوه وانصرفوا .

— دخل حَسَنٌ المدينةَ عسى أن يَجِدَ طعاماً يطعمه ، فدخل محلَّ طِباخ معروفٍ بالشراسة والقسوة فى المعاملة ، وما رآه ، حتى ألقى الله

حُبَّه فى قلبه ، فأكرم منزلَه ، وعرض عليه أن يتخذَه ابناً له ويعمل معه فى مطبخه ، ولما رضىَ حَسَنٌ بذلك نزل الطباخُ المدينة ، واشترى له حُلَّة فاخرة ألبسه إياها ، وكان قد حكى له ما وقع ، فقال : اكتُمْ أمرَك حتى يأتىَ الله بفرجٍ من عنده .

(٣)

ولما أصبح الصباح ، وانشقَّ الظلامُ عن نور الفجر ، وطار الكرى عن مَعاقدِ أجفان حياةِ النفوس ، واستيقظتْ من نومٍ عميق طويل — لم تجد حَسناً بجانبها ، فظنَّتْ أنه يقضى حاجة ، فجلستْ تنتَظرُه باسمةً مستبشرة ؛ وبينما هى فى انتظاره . إذ ناداها أبوها من باب حجرتها ، فهبتْ مسرعةً إليه مجيبةً : لبيك أيها الوالد العزيز ، وكان قد أسرَّ فى نفسهِ أن يقتُلَها إن وَجدَها قد مكَّنَت الأحدبَ من نفسها ، واستأذنَتْه أن يدخلَ ويجلسَ ، وكانت دهشةُ والدها عظيمةً أن رآها مُشْرِقةَ الوجه ، تكادُ حركاتُها تنطقُ بما هى فيه من هناءةٍ لم تُمنحْ غيرها من العالمين . فسألها فى لهفٍ وحيرة : هل أنت مغتبطةٌ بهذا الزواج ؟

فقالت فى ابتسامةٍ تَشعُّ فرحاً وطرباً . وكيف لا تُسَرُّ مثلى من هذا الزواجِ الذى لم يُقيَّضْ لواحدة غيرى ، والذى لم يَكُنْ له نظيرٌ إلا فى جنات النعيم ؟ ! !

فزادت دهشتُه وتلهفُه، وقال : ومكّنتِ هذا الخبيث الأحدب من نفسك ؟ !

فأجابت فى هدوءٍ كلُّهُ اطمئنانٌ وأمنٌ : أىُّ خبيثٍ أحدب ؟ ! لم يَعُدْ فى الأمرِ خفاءٌ، فقد كُشِفَ لى الغطاء عن تدبيرك، وأشكرُ لكَ حِرْصَك على بنتِك أن تَمَسَّها أعينُ الحاسدين .

فلم يفهمْ والدُها شيئاً، وقال فى فَوْرَةِ غضبٍ حادَّةٍ : واللّه لئنْ كنت قد مكّنتِ هذا الأحدبَ من نفسك لأَقْتُلَنَّك شرَّ قتلة .

فقالت : كأَنِّى بك أيها الوالد العزيزُ؛ لا تعرف من أمرى شيئاً، لقد طُلِّقْتُ الليلةَ من الأحدبِ، وبنى بى حَسَنٌ بدرُ الدين، وإنه لفتًى إذا رأيتَه رَأَيتَ الحورَ العِين !

فقال ما هذا الذى تقولين ؟ !

فقالت : وهذه عمامتهُ وجُبّتهُ، وإنه الآن بالمرحاض؛ وإنى فى انتظاره .

وكانت قد طالتْ غيبةُ حَسَنٍ، فهمَّ والدها بالمرحاض فوجد بابه مفتوحاً، وليس به أحدٌ، فأخذا يبحثان عنه فى البيت فلم يعْثُرا عليه، فعادا إلى حجرةِ الزوج، وجعل أبوها يفحصُ ملابسه، فألفى عمامةَ الوزراء، وجُبَّةَ الوزراء، ووجد الصُّرّة وبها ألفُ الدينار التى أخذها حَسَنٌ من اليهودىّ ثمناً لبضائع والده، ثم وجد بين البطانةِ والظهارةِ ورقةً، ففضها وقرأ ما فيها، فَعَلِمَ منها أنه ابنُ أخيه نورالدين، وعرف تاريخ

سفره من مصر، وما جرى له حتى توفاه الله. وما انتهى من قراءتها حتى خرَّ مغشياً عليه، ولما أفاق أخبرَ بنتَه بذلك، وذهب من فَوْرِه إلى السلطانِ وأنبـأهُ ما حصل، وأَطْلَعَه عَلَى ورقتِهِ هو، التى سجلَ فيها تاريخ زواجه، وولادةِ ابنتِهِ، وعلى ورقةِ أخيه نور الدين التى سجَّل فيها ذلك، فألفاهما تُطَابِقُ إحداهما الأخرى، فَتَعَجِبَ من هذا الأمرِ أىَّ عَجَب!

وأقام الوزيرُ وابنتهُ، ينتظرانِ عودةَ حَسَنٍ ومرجعَه، وانفرجَت مدةُ الحملِ عن غلام جاء آيةً فى الحسن والجمال. فسمَّوْه عَجيباً، وكفله جدُّه؛ ولمـا بلغ أربعَ سنين ألحقه بمكتب، يتعلمُ فيه القراءة والكتابة، ويحفظ القرآن الكريمَ، وكان عَلَى جانبٍ من النشاطِ، وعزةِ النفسِ، وكثيراً ما كان يفتخرُ عَلَى أقرانهِ وأترابه بأنه ابنُ وزير، حتى نال ذلك من نفوسهم، فبعثوا شكوتهم منه إلى عريفهم، فقال لهم: أعلنوا بينكم أنه لا يجتمعُ بكم، ولا يشاركُكُم فى اللعب إلا مَنْ يعرفُ والدَه. ولمـا اجتمعوا أذاعوا ذلك بينهم، وجعلوا يتساءلون عن آبائِهم، حتى جاء دورُ عجيبٍ، فقال: أبى شمسُ الدين وزيرُ مصر. فضحكوا منه، وانفضُّوا من حوله. فذهبَ إلى العريفِ شاكياً ضحكَ الأولادِ منه، واستهزائهم به، فقـال له: لا تعتقدْ أن أباك شمسُ الدين وزيرُ مصر، إنه جَدُّك لأمك، وقد زوّجَ أُمَّكَ لسائسٍ أحدبَ، وجاءت الجنُّ ليـلةَ البناء بها، فناموا عندها، ولهذا لا تعرفُ لك أباً.



فخفَّ عجيبٌ إلى أمه يبكى ، وسألها عن أبيه ، فقالت : إن أباك وزيرُ مصر شمسُ الدين .

فأجابها : إنه أبوك وجدى ، وإن لم تعرفينى بأبى فسأطعن نفسى بهذا الخنجر ، فبكت أمُّه بكاءً مُرًّا ، ودخل عليها أبوها فوجدها تبكى ، وأفضَتْ إليه بما حصل ، فملا وَجهَهُ سحابةٌ من الحزن ، وخرج إلى السلطان ، وأعلمه ما جرى ، وطلب أن يُؤذَنَ له بالسفر إلى البصرة للبحث عن ابن أخيه فأَذِنَ له .

سافر الوزيرُ وبنته وابنها ، وأخذ معه ما يحتاجُ إليه من زاد وأدوات وغِلمان ، حتى وصلوا إلى دمشق ، فحطوا رحالهم بميدان الحصباء ، ونصبوا خيامَهم ، ينْوُون الإقامة للاستجمامِ والراحة ، وقضاء ما يحتاجون منها ، وليتفرجوا على المدينة ، ومساجدِها وأبنيتِها ، تَنْفيساً عن أنفسِهم ، وتخفيفاً لما بهم من غمٍّ وحزن .

ودخل المدينةَ عجيبٌ ، وفى صُحْبتِه غلامٌ من غِلمان جَدِّه ، فاستهوى الدمشقيين جمالُه ، وحسنُ قَدِّه واعتدالُه ، وصَرَفَهُمْ عن شُئونهم إليه ، وتبِعُوه فى مَرَاحه ومَغْدَاه وشاء الله أن يقفَ عجيبٌ أمام المطبخ الذى يعملُ فيه أبوه ، فتعارفت العواطفُ وأْتَلَفَتْ وشائجُ الدَّم ، وحنَّ كلٌّ منهما إلى الآخر حنين دمٍ وفِطرة . فتلطَّفَ إليه حَسَنٌ ، ورجاه أن يتفضلَ ، ويَطْعَمَ شيئاً مما عنده ، فلم يجد عجيبٌ مفرّاً من تلبيَة ما يحسُّه فى نفسه من ميل إلى النزولِ على رأيه ، ودخل المطبخَ ، فوضع حَسَنٌ

أمامه وعاء به حَبُّ الرمان، ثم قال عجيبٌ ، إذا تفضَّلْتَ وقاسَمْتَنا هذا الطعام كان لك الشكر الجزيل فعسى الله أن يجمعَ الشملَ ، ويَقْضِيَ عَلَى الفُرْقةِ .

فقال حَسَنٌ : ليس أحبَّ إلى نفسى من أن أَطْعَمَ معك الطعامَ ، فأْكلوا هنيئاً ، وشربوا مريئاً .

غادر عجيبٌ والغلامُ المطبخَ فلم يُطِقْ حَسَنٌ بدرُ الدين صَبْرًا على فراقهما ، فأَغْلَقَ المطبخَ ، وسار خَلْفَهُما مدفوعاً بغريزته ، ولئنْ سألته عن شيء يَدْفَعُه إلى ذلك لا تجد لديه جواباً إلا أنه مَسُوقٌ سوقاً .

وقد لفتَ الغلامُ نظرَ عجيبٍ إلى أن هذا الرجلَ الذى طعِمْنا عندَه يقتفى أَثَرَنا وَيَتتبَّعُ خطواتِنا ، ونخشى أن يكونَ له فى ذلك مأربٌ يَلْحَقُنا منه مكروهٌ أو أذى . فلو زجرناه انصرف عنا .

فقال عجيبٌ دع الناسَ فى سبيلهم ، حتى إذا ما انفرد بنا سبيلُنا إلى خيامنا ، ووجَدْناه لا يزال يَتْبَعُنا زجرناه وطردناه . ولكنَّ حَسَنًا لم يرجعْ ، وقد أشْرَفا على خيامِهم فرماه عجيبٌ بحجرٍ شجَّ جبينَه ، فعصبَ رأسَه بقطعةٍ من عمامتِه ورجع لا يَلْوى على شيء وفى قلبه من الحسرةِ ما لا يستطيعُ دفعَه ، وعاد إلى مطبخِه يُزاولُ عَمَلَه .

وبعد ثلاثةِ أيام من مُقامِهم ارتحلُوا إلى البَصرة ، ولما استقرَّ بهم المقامُ فيها ذهب إلى السلطان الذى أكرم لقاءه ، وأخبره أنه جاء لأمر كذا ، وقصَّ عليه قصتَه ، فقال السلطان : رحم الله نورَ الدين

فقد كان وزيرى الذى أعتمدُ عليه فى السراء والضراء، وقد مات منذُ خمسةَ عشرَ عاماً، وأعقبَ ولداً اسمُه حسنٌ بدرُ الدين، افتقدْناه ولم نقفْ له على أثر، غير أن أُمَّهُ لا تزالُ بيننا؛ لأنها بنتُ وزيرى الأكبر. فاستأذَنه أن يلتقىَ بها فأذنَ له، وأمر أن ينزلَ عندَها فى دارِ أخيه نورِ الدين.

دخل شمسُ الدين عليها فألفاها أمامَ قبر ابنِها الرمزىّ كرمادِ المَوْقدِ المُضطرمِ، فعرَّفها بنفسه، وبما جرى لابنها مع ابنته، وأنه أعقبَ ولداً أسميناه عجيباً، وهو معنا الآن. فولَّد فى نفسها الأملَ، ولكنه ليس كالأمل المعسولِ، يُولَد فى النفوسِ المَرِحَةِ الغَضَّة، وطلبتْ أن ترطِّبَ كبدَها برؤيته، فلما حضر ضَمَّتْهُ إلى صدرِها، وأكبتْ عليه لثْماً وبُكاء فقال شمس الدين: ليس البكاء سبيلًا إلى نيلِ الرغائب، فاستَعِدِّى للرحيلِ معنا إلى مصر؛ عسى اللهُ أن يجمعَ الشتيت، ويرْأَبَ الصَّدْعَ، ويمُنَّ علينا بلقاء ابنِك وابنِ أخى. فقالت: ذلك خيرٌ وأبقى.

وارتحلوا مُشَيَّعِين من المَلِكِ بمظاهرِ الإجلالِ والتقدير، وبعث مع الوزير إلى سلطان مصرَ الهدايا الفاخرة، وجَدُّوا فى الارتحالِ حتى نصبوا خيامهم بميدان الحصباء، من مدينةِ دمشق، وهو المكانُ الذى نزلوا به وهم قادمون، وقَرَّ رأيُهم على الإقامةِ أُسبوعاً كاملا: يستجِمُّون، ويَتزَوَّدُون، ويشترون بعضَ الهدايا إلى السلطان، تقديراً لعَطْفه وحَدَبه عليهم.

وبعد أن اطمأنَّ بهم المقامُ ، قالَ عجيبٌ لغلامه : هيَّا بنا إلى دمشق عسى أن نَلتقيَ بذلك الرجلِ الذى أكرمَنا ، واحتفى بنا وكان جزاؤه منا أن نهرناه ، وشججنا رأسه .

وأخذا يسيران فى شوارعِ المدينةِ حتى وصلا إلى مطبخِه ، ولما التقيا به ، وسلما عليه ـ تحرَّكت العواطفُ فيهم ، على نحوِ ما تحركتْ أولَ لقاء ؛ ورغب حسنٌ نورُ الدين أن يطعَمُوا زادَه ، فقال عجيبٌ : على شريطةِ ألّا تتبعَنا ، كما فعلْتَ فَعلَتَكَ الأُولَى ، فقال : لكما ذلك .

وجلس ثلاثتهم يأكلون ، وأراد حسنٌ أن يُطيلَ جلستَهم ، ويزيدَ إكرامَهم ، فكانَ كلما فرغ وعاء من حبِّ الرمان أحضرَ آخر ، واستهوَتهم لذَّتُه ، فجعلوا يأكلون حتى امتلأتْ بطونُهم ، ولم يعودُوا بعدُ فى حاجةٍ إلى طعامِ العشاء ، ثم انصرفَ عجيبٌ وغلامُه إلى أهليهما ، وكانت الشمسُ قد آذنتْ بالمغيب .

أُعِدَّ طعامُ العشاء ، وجلست الأسرةُ حولَ المائدة ، وكانَ من ألوانِ الطعامِ المُعدَّةِ حبُّ الرمان ، وجلس عجيبٌ والغلامُ ، وفى نفسيهما زهادةٌ ، وفى بطنيهما شبعٌ ؛ ولما ذاقَ عجيبٌ حبَّ الرمان ، لم يجدْ فى مذاقه اللذةَ التى وجدَها فى حبِّ الرمان الذى طعِمَهُ فى مطبخِ دمشق ، فقال لجدته : إن هذا أقلُّ جودةً وحلاوةً مما ذُقناه فى دمشق ، فقالت جدَّتُه : وكيف ذلك ولم يستطعْ أحدٌ أن يُجيدَ طهْيَ هذا الصِّنْفِ إلا ابنى حسنٌ بدرُ الدين وأُمُّه ، فقال : يَحْسُنُ أن ترسلى فى طلبِ شىءٍ منه

لِتَقِفِى بنفسِك على ما بينهما من فرْق .

فلما حضرَ وطَعِمَتْ منه شيئاً ، أصابها ذهُولٌ ، وقالتْ : إنْ صدَق ظَنِّى فإن صانعَ هذا ابنى حسنٌ نورُ الدين ، فنهض الوزيرُ من فوره إلى السلطان ، وناوله كتابُ ملكِ مصر ، وبه رجاء التفضلِ ببذلِ المعونةِ فى القبضِ على حسنٍ بدرِ الدين ، وإيفادِه مع وزيره إلى مصر ، فأمرَ فى الحال أن يصحبَ الوزيرَ عشرون جُندياً ، يكونون فى طاعتِه ، وتحتَ إمْرَته ، حتى يقضىَ ما يشاء .

وسِيقَ حَسَنٌ بدرُ الدين إلى خيامِ الوزيرِ ، وهناك حزَمُوا أمتعتهم واستأنفوا المسيرَ إلى مِصْرَ ، حتى كانوا فى بيتِ الوزير .

كُلُّ ذلك ولا يَدرِى حَسَنٌ من أمرِه شيئاً . ولقد أمعنَ الوزيرُ فى إخفاء معالِمه عَنْ أُمِّه حتى لا تعرفَهُ إلا فى بيتِه ، فقضى عليه أن يَكونَ مُلَثَّماً ، بحيثُ لا يبدو مِنْ وَجْهه ما يَنِمُّ عنه ، وَيَدُلُّ عليه .

وهناك فى قصْرِه أمَرَ أنْ تَأْخُذَ حُجُراتُه وأبهاؤُه وكلُّ شىء فيه ما كانت عليه ليلةَ الجَلْوَةِ ، وأسرَّ إلى ابنته أن تأْوى إلى فراشِها ، فإذا ما دخلَ عليها زوجها حَسَنٌ ، أَخْبَرَته أنه أَبْطَأَ فى المرحاض ، ولا تزال فى انتظاره .

ولما جَنَّ الليلُ ، وخلا البهوُ ، والحجراتُ التى تُطِلُّ عليه ، إلا من حَسَنٍ الجالِس ، وحياةِ النفوسِ المنتظرةِ فى حجرتها . أيقظ حَسَناً هذا السكونُ الشاملُ ، فكَشفَ عن وَجْهه ، ودار فى البهوِ يبصره ، فإذا

بَهْوُ الجَلْوةِ ، فقامَ ومشى نحو الْحجرةِ التى فيها زوجُه ، وما كاد يُطِلُّ من بابِها ، حتى هَمَّتْ به قائلةً : لقد أبطأتَ فى الرحاض يا حَسَنَ ! وأرجو ألا يكونَ ذلك عن علّةٍ ؛ فهل تريدنى على شىء يُريحك ويهنئك؟

فلم يحرْ جواباً ، وأدهشه أن رأى الحجرةَ كما هى ليلةَ الزفاف : فهذه عمامَتُه ، وهذه جُبَّتُه ، وهنا السريرُ وفرشه ، وهناك المرآةُ وأدواتُ التجميل والزينة ، وكلُّ شىءٍ كما كان ، لا تبديلَ فيه ولا تَغْيير ، ولا نقصَ ، ولا زيادة ، وقال فى صوتٍ حائر :

لم أكن فى المِرْحاض ، ولكن كنتُ فى دِمشق أُديرُ مطبخاً هناك !

فقالت : لعلَّكَ قد أَخَذَتْكَ فى المرحاض سِنَةٌ ، فرأيتَ فيما يرى النائمُ ما تحكى !

فقال : لقد اختلَطَ عَلَيَّ الأمرُ ، فما لقيتُه يجعلُنى مُوقِناً أنه يَقَظَةٌ ، وما أنا فيه الآنَ يَسُوقُنى إلى الظنِّ بأنه حُلْمُ النائم ، وإنى أحمد هذه الخاتمةَ الطيبة ، فلندعْ هذا الأمرَ إلى أن ينجليَ صُبْحُه ، ونسأل الله تعالى أن يحوطَنَا برعايتِه ، ويكتبَ لنا السلامةَ فى الدَّارَيْن .

وفى الصباحِ حضر الوزيرُ إليهما ، وأعلمهُمَا كلَّ شىءٍ ، ثم غادرهما إلى الملكِ ، وبسط له كلَّ صغيرةٍ وكبيرة ، فكان عَجَبُه عظيما ، وأمرَ أن تُدوَّن هذه الحوادثُ ، لتكونَ مَسْلاةً وذِكْرَى ، ورَجَعَ إليه رضاه عن وزيرِه ، وبوَّأَهُ من نفسِه مكاناً أعلى ، وأسبغ على الزَّوجَيْن نِعمه العظمى .



معروف الاسكافى

كان بمصرَ إسكافىٌّ يُسَمَّى مَعروفاً، وله زوجةٌ تسمى فاطِمةَ العُرَّة، وكانت حَمقاء شَرسةَ الخلُق، مجردةً من الذوقِ السليم والأدب، كثيرة الإيذاء لزوجها، فتشتمهُ تارة، وتضربهُ أخرى، وتكلفُه ما لا يُطيقُ أداءه، غيرَ مُقدّرةٍ فقره، وضيقِ ذاتِ يدهِ، والويلُ له إنْ قلَّ يوماً مكسبهُ، أو طلبتْ شيئاً ولم يستطعْ إحْضاره، يَبيتُ ليلتَه فى غمّ دائم، وشرٍّ لا يَذوق معه النَّوْمَ، وكان معروف عاقِلاً صبورًا يفضِّلُ احتمال أذاهَا، خشيةَ الفَضيحةِ كلّ ساعة.

وذاتَ يومٍ قالتْ له، وهو ناهضٌ من نومه: لا ترجعْ إلىّ آخر النهار إلا ومعك كنافة، وعليها عَسلُ نَحلٍ.

فقال : يَسُرُّنى أن يُسَهِّلَ الله الرزق وأحضر لكِ الكنافة ، وأنا وأنتِ رزقنا عَلَى الله .

فقالت : سَهَّلَ أو لم يُسَهِّلْ فلا تُرِنِى وجهكَ آخر النهار إلَّا ومعكَ الكنافة . . !

فقال : لا أتأخرُ أبدًا عن تنفيذِ طلبِك وأرجو من اللهِ أن يرزقَنِي هذا اليومَ بثمنها .

فقالت : يَرْزقْك أوْ لم يَرْزقْك فلا بدَّ منها ، وحذار أن ترجعَ بدونها ، إنكَ إذًا تبيتُ فى همٍّ وغمٍّ عَظِيمين ، وقدْ أنذرتكَ ، ومن أنذَرَ فقد أعذَرَ .

فقال : اللهُ كريم ، وخرجَ وهو يتميَّزُ من الغيظِ والغَمّ إلى صلاةِ الصبح ، فصلَى وفتح دكانَه ، ودعا ربَّه ، أن يرزُقه ثمن الكنافة ، حتى لا تغمّه زوجُه . فانتصفَ النهارُ ولم يعملْ بدرهمٍ ، وكأنَّ القدرَ سدَّ طرق الناس إليه فى هذا اليوم . فلم يذهبْ إليه أحد ، فأقفلَ دكانه ، ومَشَى متحيِّراً من خَوْفِهِ ، حتى كانَ أمامَ دكانِ بائعِ الكنافةِ ، فوقفَ ينظرُ إليه . وعيناهُ غارقتان فى دموعِ الحزنِ الأليمِ ، فناداه بائع الكنافةِ وقال له :

ما يبْكيكَ يامعروف ؛ فشرحَ لهُ حالهُ ، وما يخشاهُ الليلة من زوجه إذا رجعَ إليها بغير الكنافة ، ذلك اليومَ الذى ليسَ معه فيه ثمنُ الخبزِ وطعام العشاء ، فابتسمَ بائع الكنافةِ وقال : كم رطلاً تُريد ؟

فقال : خمسة أرطال ، فوزنها له ثم قال : السمنُ عندى ، وليسَ عندى عسلُ النحلِ ، فهلْ أصنعُها بعَسلِ القصب ؟ إنه فى رأينا أحسنُ من عسل النحلِ ، ونأكلها به كثيرًا ، ويكونُ لها بهِ طعمٌ لذيذ .

فقال معروف : لا بأسَ فى ذلك ، فاصنعْها بعسل القصب ، وصَنَعَها بائع الكنافةِ صنعةً تُهدى بها إلى الملوك ، ثم قال : وأظنكَ تحتاجُ إلى خبزٍ وجُبن ؟

فقال : نعمْ ، فأعطاه كل هذا ، وبَلَغَ ثمنُه خمسةَ عشرَ نصفاً ، ثم قال له : اذهبْ إلى زوجكَ ، وكُلا هنيئاً ، واشرحْ صدركَ الليلةَ بِسُرورِ زوجك ، وخذْ هذا النصفَ لك أجرة الحمام ، وسأصبرُ عليكَ حتى يرزُقَكَ الله ، وتصبِحَ قادراً على أداء هذا المبلغ ، فشكرَ معروفٌ لبائع الكنافةِ فضله ، وحمدَ الله الذى أكرمه وحَفِظه .

ولما دخلَ عَلَى زوجه قالت :

هلْ أتيتَ بالكنافة ؟ ؟

فقال : نعمْ ، ووضَعَها قُدَّامها ، فوجدتْها مَصْنوعة بعسلِ القصب ، فغضبتْ وقالت : كيف تخالفُ أمرى ؟ وتَضَعُ عليها عسلَ القصب ؟ فقال : لم أرزقْ هذا اليوم ، وقد اشتريتها بثمنٍ مؤَجّل ، وليسَ عند بائعِها عسلُ النحل . فغضبَتْ ورمتْ بها فى وجهه ، ونزلتْ عليهِ ضرباً حتى كسرتْ سِنّه ، وسال الدمُ عَلَى وجههِ .

فاغتاظَ منها ، ودفعها عنهُ بيدِه ، فأمسكتْ لحيتَه وصوتَتْ ، فأسرع

الجيرانُ إليها ، وخلّصوا لحيَته من يدها ، وعرَفوا من زوجِها حقيقَةَ أمرها ، فعابُوها ولامُوها وأنّبُوها ، وقالوا : ليسَ في الكنافةِ عيبٌ وكلنا نأكلها بعسلِ القصب ، ما هـذا الظلمُ ؟ وما هذا التجبُّر ؟ إن زوجكِ رجلٌ فقيرٌ وصالحٌ وصابر ، ولو كان شريراً لأذاقكِ المرّ ، وكتَم أنفاسكِ وألبسَكِ ثوبَ المهانةِ والضرّ ، ثم أصلحوا بينَهما وخرجُوا ولكنّ فاطمةَ العرة أصرتْ عَلَى غضبها ، وحلفتْ ألا تأكلَ من الكنافة ، وكان معروف قد اشـتدّ به الجوع فجلسَ يأكل الكنافة وحده . . .

فقالت : تأكلُ الآن ممّا يفري بدنك .

فقال : ليسَ السمُّ بكلامكِ ، وإذا رزقني اللهُ غداً ، اشتريتُ لكِ كنافةً بعسلِ النحل ، وجعلتُكِ تأكلينَها وحدكِ ، ما دمتِ حلفتِ ألا تأكلي منْ هـذه الكنافة ، ولـكنّ غضبَها لم يسكتْ ، وما زالتْ تشتمهُ وتسبُّه حتى الصباح .

ولما استيقَظَ منْ نومِه ، خرج إلى صلاةِ الصبح وإلى دكانِه ، مُشيّعاً منها باللعناتِ والشتائِم ، وما لبثَ في دكانِه غير قليل حتى حضرَ إليه اثنان يدعُوانه إلى القاضِي ، لأن امرأَته شكَتْهُ إليـه ، وقالا إن صفتَها كيتَ وكيْتَ ، فعرفها وأقفلَ دكانَه ، وصَحِبَهما إلى القاضِي فوجدها مَرْبوطة الذراع ، ملوثَة البرقُع بالدماء ، وهي واقفةٌ أمام القاضِي تبكي وتمسحُ دُموعها ، فقال القاضي لمعروف :

ألم تخف الله ؟ كيف تعتدي على هذه الضعيفة ، فتكسر ذراعها وسنها ، وتضربها هذا الضرب الموجع ؟!

أما سمعت قول الرسول الكريم : « اتقوا الله في الضعيفين : المرأة والرقيق » ؟؟

فقال معروف : إن كنت فعلت شيئاً من هذا فعلي غضب الله والملائكة والناس أجمعين .

إن قصتها كيت وكيت ، وحكى له كل شيء .

وكان القاضي من أهل البر والخير فقال : خذ ربع الدينار هذا ، واصنع به كنافة بعسل النحل لها ، واغفر لها زلتها ، وأرى الصلح خيراً لكما

فقال : أعطها ربع الدينار ، تعمل به ما تشاء ، ووصى القاضي المرأة أن تطيع زوجها ، والزوج أن يترفق بها ، وخرجا مصطلحين ، فسارت في طريق ، وسار هو إلى دكانه في طريق ، وبعد أن جلس فيه قليلاً جاءه رسولا القاضي وطلبا أجرهما ، فقال لهما : إن القاضي لم يأخذ مني شيئاً ، بل أعطاني ربع دينار ، لما رآه من فقري وحاجتي .

فقالا : لا شأن لنا عما فعله القاضي ، وإن لم تعطنا أجرتنا أخذناها منك قهراً ، واضطراه إلى بيع شيء من عدد صناعته ، وأعطاهما نصف دينار ، وجلس في الدكان حزيناً ، إذ فقد بالبيع القهري كثيراً من عدته التي يشتغل بها .

وبينما هوَ في حزنه وتفكيره ، إذ أقبلَ رجلان ، وطلبا إليه أن يقومَ إلى القاضي ، لسؤاله في شكايةِ امرأته ، فقال : لقد اصطلحنا عند القاضي ، وأنا آتٍ منْ عنده الآن ، فقالا :

ذلكَ قاضٍ آخر ، شكتْكَ إليه ، فقُمْ ولا تبطِئْ ، فقام معهما ، وهو يتململُ من أذاها ، ويرجو من اللهِ أن يحفظَهُ منْها ، حتى كانَ أمامَ القاضي ، فقال لها :

يا بنتَ الكرام ، إن القاضي أصلحَ بيننا هذا اليوم ، وخرجْنا من بيْن يديْهِ مُصطلحين

فقالتْ : لا صلحَ بيني وبينك ، فحكى للقاضي حكايتَهاَ ، من بدئهاَ إلى نهايتها . فاغتاظَ القاضي وقال :

يا كذَّابة ، كيفَ تشكينَ زوجَكِ بعد أن اصطلحتما ؟ فقالت : ضربَني بعد الصلح . . .

فقال : ومن يستمعُ لقولكِ ، بعدَ أنْ بانَ كذْبكِ ، ثم أصلحَ هذا القاضي بينَهُماَ ؛ ووصاهُماَ أن يعاملَ بعضهُماَ بعضاً بالمعروف والحُسنَى ، وأذنَ لهما بالانصراف ، وذهبَ هوَ إلى دكانه ، والدنيا تكادُ تكونُ أضْيَقَ من سَمِّ الخِياطِ في نظرِه ، ثم جاءه رجلٌ وأسرَّ إليه أنْ يهربَ الآن ، لأن زوجتَه شكتْه إلى البابِ العالي ، وبعدَ قليلٍ سيأتيه أبو طبَقٍ ليأخذَه إليه ، فنهضَ لساعته ، وأقفلَ دكانَه ، وهربَ إلى جهةِ باب النصر وكانَ قد بَقِيَ معه خمسةُ أنصافٍ من الفضة ، من ثمن المُدَدِ التي

باعها ، ليعطِىَ الرسولَين أجرهما ، فاشترى بأربعةٍ خبزاً ، وبنصفٍ جُبْناً ، وكانَ ذلكَ فى عصر يومٍ من أيام الشتاء .

فلما كان بينَ الأكوامِ نزلَ عليه مطرٌ شديد كأفواهِ القِرَب ، ووجدَ مَوضعاً خرِباً ، به مخزَنٌ مهجورٌ لا بابَ له ، فدخلَ فيه يَستكنّ من المطر ، ومن وطأةِ البردِ وشدته ، لأن ملابسَهُ قد ابتلّتْ ، واشتدّ به ألمُ التشرُّد . فبكى بكاءً مرّاً ، ورفع يَديْه إلى السماء قائلًا :

أسألكَ يا ربّ أن تُقيضَ لى مَنْ يأخذنِى إلى بلادٍ بعيدة ، لا تعرفنى فيها امرأتى ، فانشقَّتْ فى الحال حائط فى المخزن ، وخرجَ منها شخصٌ طويلُ القامة ، ذو منظرٍ يقشعرّ منه البدَن ، وقال :

ما لكَ أيها الرجلُ ؟ إنِّى مقيمٌ فى هذا المكان منذُ مائتَىْ عام ، فما رأيتُ أحداً دخَلَه ، وفعلَ ما فعلتَه ، وقد أشفقتُ عليكَ ، فأخبرنِى عما تُريدُ ، فإنى مُؤَديه لك ، فقال معروف :

ومنْ أنت ؟

فقال : أنا جِنىٌّ وساكنٌ فى هذا المكان ، فأخبَرَهُ معروفٌ بكل شىء جرى ، فقال :

إنْ كنت تريدُ أن أنقلكَ فى الحال إلى بلادٍ بعيدة ، لا تعرفُها زوجتُك ، ولا تستطيعُ الوصولَ إليها ، فإنى مستعدٌّ لذلك فقال: ولكَ شُكرى ، وأجرُكَ عند ربى . فقال : اركبْ فوقَ ظَهرى ، وطارَ بعد العشاء حتى مَطلعِ الفجرِ ، ثم نزلَ به عَلى رأسِ جبَلٍ عالٍ ، وقال : انزلْ

من هذا الجَبَل ، فإنكَ واجدٌ فى أسْفلِهِ مَدينَة ، فادخلْها وأَقِمْ فيها ، ولا يخطُرَنّ ببالِك ، أنّ زوجكَ تعرف السبيلَ إِليكَ ، ثم ودّعَه وطار .

ولما نزلَ وجدَ مدينةً ، أَسوارُها متينَةٌ عالية ، وقصورُها مشيدَة ، وهى مزدانة بحدائقِها المبَعثَرةِ التى تسُرّ الناظرِين . فلما دخلَها ومَشى فى سوقِها التفَّ من حَولهِ أناسٌ كثيرون ، لأنه يختَلفُ عنْ أهل المدينةِ ، فى زِيّه ومَلبَسِه ، وسأله رجلٌ منهم : هلْ أنتَ غَريب ؟ فقال : نَعم ، فسأله : ومِنْ أى البلاد ؟ فقال : مِنْ مدينة مِصر السعيدة ، فسأل : ومنذ كم يوم فارقتَها ؟ فقال : فارقتُها عَصرَ البارحة ، فضحِكَ من إجابتِهِ وقال : تعالَوْا أيها الناس، واسمعُوا ما يقول ذلكَ الرجلُ الغَريب، إِنه يزعمُ أنه من مِصْر، وأنه خرجَ منها عَصرَ البارحة ،فضحكُوا جميعاً وقالوا له : يا رجل، هلْ أنتَ مجنونٌ حتى تقولَ : إنكَ فارقتَ مصر عصرَ البارحة ، والمسافةُ بينها وبينَ هذه المدينة ، مَسيرَةُ سنةٍ كاملة ؟ فقال : لستُ بمجنونٍ ولا كاذبٍ فى قولى ، فهذا خبز مصرَ لا يزالُ طرياً ، ــ وكان هذا الخبزُ لا يشبهُ خبزهم ــ فعجبُوا لذلك .

وانقسمَ الناسُ قِسميْن ، فريقٌ صدّق ، وفريق كذّب .

وبينَما هم كذلكَ إذْ أقبلَ تاجرٌ على بغلتِه ، ومن خلفه عبدان يجريان فى مصاحبتِهِ ، ففرّقَ الناسَ قائلًا : أَمَا تَستحيُون ؟ ! كيف تسخَرونَ من رجُلٍ غريبٍ لم يلبثْ فيكُمْ إلا ساعةً من نهار ؟ ! ولم يزلْ يؤنبُهم حتى فرقهم ، وما استطاع أَحدٌ أَنْ يَردّ له قولا ، ثم قال لمعروف :

تعالَ مَعِي أيها الأخ ، ولا يَضِقْ صدرُكَ بما سمعتَ من هؤلاء ، فهم قومٌ ليسَ عندهم حَياء ، وأدخلَهُ دارَه الواسعة المزخرفة ، وأجلَسَهُ فى حجرةٍ مَقاعِدُها مُلوكيّة ، وفُرُشُها سُنْدُسية ، زينتْ جدرانُها وسُقفها بالصور والألوانِ الجميلة ، وأمر العبيدَ أنْ يحضروا له حُلّةَ تاجرٍ واسِعِ الغِنى ، فألبسَهُ إياها ، فزانَتها وزانَتْهُ لأنه كان وَجيهاً ، ثم وضعتْ أمامهما المائدة ، حاويةً من ألوانِ الأطعمةِ ما لذّ وطاب . فأكلا وشَرِبا حتى شبعا ، ثم قال له :

ما اسمكَ أيها الأخ ؟ فقال : اسْمى معروف الإسكافىّ ، فسأله : ومن أىِّ البلاد ؟ فقال : من مِصْر ، فسأله : ومن أيةِ حارة ؟ فقال : وهلْ تعرف مصرَ ؟ فقال : أنا من أبنائها ، فقال معروف : أنا من الدرْب الأحمر ، فسأله : ومن تعرفُ من الدربِ الأحمر ، قال معروف : أعرف فلاناً وفلاناً ، وذكر له أسماء كثيرين ممن يعرفهم ، فسأله : وهل تعرفُ الشيخ أحمد العطار ؟ فقال معروف : إنه جارِى ، وبيتُه بجوار بيتِى ، فسأله : وهلْ هو لا يزالُ حيًّا ؟ فقال : نعمْ ، فسأله : وكم ولدًا له ؟ فقال : ثلاثة أولاد : مصطفى ، ومُحمد ، وعلىّ .

فسأله : وما فعلَ اللهِ بأولادِه ؟ قال معروف : أمّا مصطفى فهو من العُلماء ، ويقُومُ الآن بالتدريس ، وأما محمد فهو عطارٌ ، وله دكانٌ بجوار دكانِ أبيه ، وقد تزوّجَ ورزقه الله بوَلدٍ سمّاه حَسَناً ، فقالَ : بشّركَ اللهُ بكلِّ خيرٍ ، قال معروف : وأما علىٌّ فإنه كانَ رفيقى فى الصغرِ ، وكنتُ

أذهبُ معهُ إلى الكنيسةِ فنسرق كتب النصارَى : و نبيعُها ، وذات يوم قبضوا علينَا ، وشكَوْنا إلى آبائِنا ، وَقالُوا : إن لم يَرتدِعوا رفعنا أمرهم إلى الحاكم ، فضربَ عليًّا أبوه ، فهرَبَ لساعته ، ومِن ذلكَ الوقتِ لا أعرف له مكانًا ، وهوَ غائبٌ منذ عشرينَ سنة ، ولمْ نعرف له خبرا ، فقال : أنا عليّ بنُ الشيخ أحمد العطار ، وأنت رفيقى يا معروف ، ففرح كل منهما بأخيه ؛ ثم قال عليّ :

وما سبَبُ مَجيئكَ من مصر ؟ وكيف جئتَ ؟ فقص معروفٌ قصة زوجته ، من بدئها إلى نهايتها ، ثم قال : ولعلَّ ضربَ والدِك كان سببَ مَجيئكَ من مِصرَ إلى هذه المدينــة ؟ فقال : كان الضربُ موجِعاً ، أثار الطيش فى نفسِى ، وحَسَّنَ إليها الفِرارَ هرَبًا ، فصرت أتنقلُ من بلدٍ إلى بلد ، ومن مدينــةٍ الى مدينة ، حتى استقرَّ بى المقامُ فى هذهِ المدينة ، واسمها اختيانِ الختن ، فرأيتُ أهلها كرامًا ، ذوِى عَطفٍ وشفَقة ، يُصدقونَ الغريبَ ويأتمِنو نه ويُساعدُونَه بالمالِ فيقرِضُو نه إياهُ إلى مَيسَرَته فلما نزلتُ فيهم قلتُ لهم : إنِّى تاجر ، وقد سبقَتْنى بضاعتى ، و بوُدّى أن تخلوا لى مكانًا أنزلها فيه ، ففعلوا ، ثم قلت : أليس فيكُمْ رجلٌ كريمٌ يُقرضُنى ألفَ دينارٍ أتجرُ بها حتى تحضُر بضاعتى ؟! فأعطونى ما طلبتُ ، ونزلتُ السوق مُتجِرًا ، وكنتُ أربحُ فى كلِّ صفقةٍ مالا يقلُّ عن خمسين دينارا ، ولا زلت كذلك أتجرُ وأُعامِلُ الناسَ بالحُسْنى حتى أصبحتُ من أغنيائهم ، و بنيتُ لى بيتاً لا يقل عن بيوتهم ، ورددْتُ إليهم ما كانوا أقرضونى

واعلم يا أخى أن العاقلَ من يحتالُ لأمْرِه ، حتى يفوزَ ويصلَ إلى ما يُرِيدُ ، وليست الحقيقةُ مقبولةً فى بعض الأحيانِ ، إذا كانت خفيَّةَ الأسباب ، وأنت يا أخى إذا ذكرت قِصتَك على حقيقتها لا يصدقُك أحدٌ لِخَفَاءِ أسبابها ، وتصبحُ بسبَبِها أحدوثةً فى ألسنة الناس ، وإن ذكرت لهم طيران العفريت بك ، نفَروا منكَ وخافوا أن يكونوا بجوارك حتى لا يؤذيَهُم عِفرِيتُك ، فقال معروف : وكيف أصنع ؟ فقال : سأعلمك كيفَ تَعيشُ ، وكيف تَصنع ، فاستمِع لما أقول :

سأعطيك غدًا ألفَ دينارٍ وعبداً من عبيدى ، وبغلةً تركبُها وتذهبُ بِها إلى سوقِ التجّارِ ، والعَبدُ يجرى أمامكَ ليدُلك على الطريق ، وليكونَ تحتَ أمرك ، وسيكونُ التّجارُ مجتمعين غداً فى هذه السوق وأنا فِيهم ، فإذا قدمتَ وسلمتَ عَليهم ، أسْرَعتُ بالقيام إليك ، وتقبيل يَدَيْك ، وتعظيم قدرِك ، ورفع شأنِك ، وإن سألتُك عنْ أى صنفٍ من أصناف القماش وقلتُ : هل جئتَ بشىءٍ منه فقُل : جئتُ منه بشىءٍ كثير ، وكلما سألونى عنكَ أكبرتُك فى نفوسِهم ، وأفْهَمتهم أنك تاجرٌ غنيٌّ كريم ، ولهذا فإذا جاءكَ سائلٌ فأعطِهِ ما تيسَّر ، ولا تردَّهُ خائباً ، حتى تُعزِّزَ قولى فيك ، وسأجمَعُكَ بهم فى وليمةٍ حافلةٍ عِندى ، لأعرفَهم بك وأُعرفَك بهم حتى تَستَوْثِق بينكم المعاملةُ والصداقة وتَنْشَط عندكَ حركةُ البيع والشراء ، لتكونَ بعدَ مُدةٍ وجيزةٍ ، غنِيًّا ذَا أَموالٍ كثيرة . واحذرْ أن تذكرَ لأحدٍ فقركَ أو صنعتَك أو زوجتَك ، أو عِفريتَك

الذى طارَ بكَ إلى هذه المدينة ، ولا تحمِلْ لشىءٍ همًّا ، فأنت رفيقى ، وصَديقى فى نَشأتِى ، فقال معروف : أشكرُ لك فضْلكَ ، وصِدقَ أُخُوّتِك .

وفى الصباح أعطاهُ ألفَ دينارٍ ، وأبرأ منه ذمتَه ، وأركَبَهُ بغلتَه ، وجعلَ عَبدًا فى خِدمته ، ومصاحبتهِ إلى سوقِ التّجّارِ الذى سبقَهُ إليه ، حتى يكونَ فى استقبالهِ ، عند قدومهِ ، فلما وصلَ معروفٌ إليهم ، كانَ علىٌّ من بينهم ، فما رآه حتى تقدَّمَ إليه ، وقبَّل يديه ، وقال :

أهلاً وسهلاً بالتاجرِ معروف صاحبِ الفضل والمعروف ، والتفتَ إليهم قائلاً : جاءكم كبيرُ التّجّارِ فى مِصر ، وصاحبُ الأموالِ الكثيرة والتجارة الواسعة ، فى مصرَ وغيرها من البلادِ والأقطارِ الكبيرة ، كالهندِ والسندِ وغيرهما . ولهُ فى الكرمِ أيادٍ بيْضاء ، ومواقف لا يدانيه فيها أحَد ، فأنزِلُوه بينَكُم منزلتَه ، مِن عَظيمِ تقدِيرهِ واحترامِه ، وحسن معامَلتِه ، وعظيم ائتمانهِ ، والاطمئنان إليهِ ، وجعل علىٌّ يَخلُو بتاجرٍ بعدَ تاجرٍ ، فيخلَعُ على معرُوفٍ من صفاتِ المدح ، ما يرفعُ قيمتَهُ فى نظره ، ويجعلُه محلّ اطمئنانه وثقته ، ثم أخذ علىٌّ يسألَهُ أمامَ التجار عنْ أصنافِ القُماش ، فيُجيبُه بأن عندَه منْها شيئًا كثيراً ، — وكان علىٌّ قد عرَّفه بالغالى منها والرخيص ، وحفَّظَه كثيرًا من أسمائها — حتى فهم الجالسون أن معروفًا أوسعُ التّجّارِ مالا ، وأكبرُهم منزلةً وقدرًا ، وسأل أحدُ التّجّار عليًّا : هلْ مواطِنُكَ مَعروفٌ يستطيعُ أنْ يحملَ إلى هذه المدينةِ

ألفَ حِملٍ من القماشِ « الفلانىّ » ؟ فقالَ علىّ : يبعثُ بها من مخزَنٍ واحدٍ منْ مخازنهِ، دونَ أن يُحسَّ أنه نقصَ منها شىء .

وبينما هم يتحادثون إذ دخلَ عليهم شحاذٌ ، فهذا أعطاه نصفَ فضة ، وهذا أعطاه أقلَّ من ذلك ، وهذا لم يعطِه شيئاً ، ولكنَّ معروفاً قبضَ قبضةً من ذهبٍ ، وأعْطاه إياها ، فدعا له بالبركة فى مالِه وانصرف ، وعجبَ التّجّارُ ودهشُوا أنْ رأوا من معروفٍ هذا الكرمَ الذى لا مثيلَ له إلا عندَ الملوك ، وقالوا : لولا أنه كثيرُ المال ما أسرفَ فى جُودِه ، وبالغَ فى عطائه ، ثم دخلتْ عليهم امرأةٌ فقيرة ، فكانَ حالُهُ معها حالَهُ مع الشحاذ من المبالغةِ فى العَطاء ، وبلغَ أمرُهُ الفقراء فهبُّوا إليه سراعاً من كلِّ صَوْبٍ ، وجعلَ هوَ يعطيهم ولا يردُّ سائلا ، حتى نفِدَ ما معه من الألف دينار ، ثم ضربَ كفًّا بكفٍّ قائلًا :

لا حولَ ولا قوةَ إلا بالله !!

فسألَه كبيرُ تجّارِ هذه المدينة : مالكَ يا معروف ؟ فقال : لو علمتُ أن الفقراء هنا كثير ، لأحضرتُ مَعى خُرجاً من ذهبٍ أوزعُه عليهم ، ولكن ماذا أفعلُ الآن إنْ جاءنى فقيرٌ وسألنى أن أعطيَه ؟ فقال : قلْ له : رزَقكَ الله ، فقال : لم أعتدْ ذلكَ مدة حياتى ، وبوُدّى أن أحصلَ على ألفِ دينارٍ أتصدقُ منها حتى تحضُرَ بضاعتى ثم أردها لمن أقرضنيها ، فقال سأقومُ بذلك ، وأرسلَ أحد أتباعِه فأحضرَها ، وَأعطاهُ الألف دينار ، فصارَ يُعطِى كلَّ منْ جاءه ، أو مر به من الفقراء . حتى دخلَ المسجدَ

لصلاةِ الظهر ، فنثر بقيَّتَها على الناس فيه ، ولفتَ بذلك أنظارَ الناسِ إليه،

وأصبحَ معروف لسخائِه العظيم موضع دهشةِ الناس والتجّارِ وعجَبِهم، ثم أسَرَّ إلى تاجرٍ آخرَ وأخذَ منهُ ألفَ دينارٍ وتصدَّقَ بها ، وعليٌّ التاجرُ مواطنُه ، يرَى ما يفعلُه ، وهو لايستطيعُ أنْ يتكلم ، ولمْ يخرجْ منْ صَلاةِ العصرِ حتى كان ما وزعه خمسةَ آلاف دينار ، وكانَ كلما اقترض ألفَ دينار قال لصاحبِها : حتى تجيء بضاعتى مع رِجالى وعَبيدِى ، فإن أردتَ ذهباً أو قماشاً أعطيتُكَ ما تُرِيد .

وفى المساءِ دعاه التاجرُ عليٌّ ، ودعا التجارَ إلى وليمةٍ عندَه فى بيتِه ، فأجلسَهُ فى صدرِ المجلس وجعلَ حديثَه يدورُ حولَ قماشِه وبضاعتِه ، وأن لديه كثيرًا منها ، وعما قريبٍ تكونُ حاضرة . ولبثَ على هذه الحالِ عشرين يوماً ، كان قد اقترضَ فيها ستينَ ألفَ دينار ، ولم تحضُرْ له بضاعة ، فضجَّ التجارُ بالشكوَى ، وقالوا : إلى متى يأخذُ معروفٌ ذهبَ الناس ويوزعُه على الفقراء ، ولم نجدْ له بضاعةً حضرتْ ؟ وشكَوْا إلى مواطنه عليٍّ التاجرِ ، فقال لهم : اصبِرُوا فإن بضاعتَه لا بُدَّ حاضرةٌ فى القريبِ العاجل ، ثم اختلى بمعروفٍ وقال له :

ما هذه الفِعَالُ يا معروف ؟ هل قلتُ لكَ « قمر الخبز أو أَحرقه » ؟ إن التجارَ خافوا على أموالِهم ، فمِنْ أينَ تؤدى الدينَ ، وتعطيهم ستين ألف دينار وأنت لا تَبيعُ ولا تشترى ؟ فقال معروف : ستون ألف دينار أو أكثر من ذلك لا خوفَ عليها ، فستجيء بضاعتى وإنْ شاءوا

أعطيتهم ذهباً أو فضة أو بضائعَ مما يشتهُون ، فقال عَلِيّ : اللهُ أكبر ، وعَلى هامانك ؟ وهل لك بضاعة : وأنتَ فى انتظارها ؟ فقال : نعمْ ، بضاعتى لا تجدُ مثلها عند أكبر تاجر ، وهى عما قريبٍ حاضرة ، فقال علىٌّ : خَسِئتَ يا معروف ، إذ تطمعُ فى أنْ يصدقك مَنْ علَّمك القول ، وذلكَ على وجهِ الخديعة ، ومَنْ هو أخبرُ الناس بك ؟

فقال معروف : لا تكثرْ من الكلام ، فلستُ بالفقيرِ المُعدِم ، وإن بضاعتى عن قَريبٍ حاضِرة ، ومَنْ له حاجةٌ عندى أعطيتُه مِثْلَيْها . وما أنا فى حاجةٍ إلى أحدٍ منهم . فهاجَ علِيٌّ من الغيظِ وقال لقد أسأتَ معى الأدبَ ، فكيف لا تستحْيِي ؟ وكيف تكذبُ على رجل يعرف كذِبك، كما تعرفُ نفسَك ؟ سترَى ما أفعلهُ بك .

فقالَ معروف : افعلْ ما بدا لكَ ، وما على التجّار إلا أنْ يصبرُوا حتى تأتيَنى بضاعتِي ، فتركه التاجر وقالَ فى نفسِه . لقد مدحتُه للتجار ، وإنْ ذممتُه الآنَ كنتُ كذّابًا . فسكت وهو لا يَدرِى ماذا يفعل !

وجاءه التجارُ وقالوا له هلْ كنتَ صاحبَكَ فى الدنانير التى اقترضَها منا ووزّعها على الفقراء ؟ قال لقدِ استحيَيْتُ أن أكلّمه، لأنّ لى عندَه ألف دينارٍ أيضاً ، على أنكمْ أعطيتُموه الأموالَ من غيرِ مَشُورتى ، فليسَ لى ذنبٌ معكم : وما عليكم إلا أن ترفعُوا ظُلامتكم إلى مَلكِ المدينة ، وقولوا . إن هذا الرجلَ الغريب خدَعنا ، وأخَذ أموالنا . فذهبُوا إلى الملك ، وذكروا له شكايتهم .

وكانَ مما قالوه : وقد حيّرَنا أمرُ هذا الرجل ، فإنّ توزيعَه الذهبَ على الفقراءِ بالحفْنَة ، يدلُّ على أنه غنيٌّ وأمواله كثيرة ، وإنّ تأخرَ بضاعتِه تلك المدةَ الطويلة ، يجعَلُنا نرتابُ فى أمره وقد أخذ منا ستين ألفَ دينار ، ووزعَها على الفقراء ، ووعدنا أن يردّها إلينا بعدَ حضورِ بضاعتِه أضعافاً مضاعفَة ، ولكنْ مضتْ مدةٌ طويلة ، ولم تحضُر له بِضاعَة .

وكان هذا الملكُ أطمعَ من أشْعب ، فقال لوَزيرِهِ : لو لَمْ يكنْ هذا التاجرُ صادقاً فى وَعدِه ، لما وزع هذه الأموال ، ولا بُدّ أن تحضُرَ بضاعتُه ، ويمنَحَ هؤلاء التجّارَ أموالاً مع أموالِهم ، وأنا أحقُّ بهذه الأموال من هؤلاء التجّار . وأريدُ أَن أُقرِبَ هذا التاجرَ منّى وأزوّجَهُ ابنتى ، لأستولِىَ على أموالِه ، فأضمها إلى أموالِى ، فقال الوزير : لاتُصَدِّقْ هذا التاجرَ ، فهو محتالٌ كذّاب ، خدعَ التجّارَ ، وأخذ أموالهم ، على أنّ لَه بضاعةً ، والحقيقة أنه لا يَملكُ شيئاً .

فقال الملك : وماذا علينا لو امتحنّاهُ لنَعْرِف أهُو صادقٌ أمْ كاذِب ؟ أهُو مِنْ بيتٍ غنِيّ كثيرِ المال ، أمْ هو فقير لا يعرفُ شيئاً من مظاهِرِ الغِنى وسعةِ النعمة ؟ فقال : وبماذا تمتحِنُه ؟ فقال : أُحضِرُه إلى مجْلِسى ، فإذا جلسَ أكرمتُه ، وأظهرتُ له عطفى ، وعرضتُ عَليهِ جوهرةً عندى فى حجمِ البندُقةِ ، ثمنُها ألفُ دِينار ، فإنْ عرفَها كان صادِقاً ، وإنْ لم يعرفْها فهو كذّاب ، وأمرتُ بقتلِه ، حتّى يستريحَ الناس من شرّه .

ولما حضرَ أكرمَه الملك ، وأقبلَ عليه يحدثه ، فقال : يدّعِى التجّارُ

أنك أخذْتَ أموالَهم .

فقال معروف : نعمْ أقرضونى ستين ألف دينار ، وسأردُّها إليهم ومعها مثلُها أو أكثر ، عند ما تحضُر بضاعتى ، ولهمْ علىّ فضلٌ عظيمٌ ، لأنهم بيّضُوا وجهِى أمامَ الفقَراء ، لهذا فهم يستحقونَ عندى أضعافَ أموالهم . ذهباً أو فضةً أو بضاعة ، فناولَه الملكُ الجوهرةَ وقال : ما هذه ؟ وما قيمتُها فضغطَ عليها بإبهامه وسبابتِه فكسرها .

وقالَ الملك : لماذا كسرْتَ الجوهرة ؟ فقال : ماهذِه جوْهرة ، ولكنها قطعةٌ من المعْدِنِ قيمتُها ألف دينار ، إن الجوهرةَ عندِى لا قيمة لها إلا إذا كانت فى حجْمِ الجوزةِ أو البيضَة ، وكانَ ثمنُها سبعين ألفَ دينارٍ فأكثر ، كيف تكونُ ملكا وتسمى هذه جوهرة ؟ ولكنكُم معذورُون لأنكم فقراء ، فتحركَ الطمعُ فى نفْسِ الملكِ وقال : هل عندكَ جواهرُ مما تقول ؟

فقال : عندى منها شيء كثير ، فقال أتعطينى شيئاً مِنها ؟ فقال : أمنحُكَ كثيراً ومن غير ثمن ، ولكن بعد أنْ تحضرَ بضاعتِي ، ففرحَ الملكُ وتأكدَ صدقُ التاجرِ فى نفسِه ، وأمرَ التجارَ أن يصبرُوا حتى تحضُرَ بضاعتَه ، وبعدَ ذلكَ يأتونَ إليه ، ويأخذونَ منهُ أموالهم .

وأقبلَ الملك على وزيرِه وأمرهُ أن يؤلّفَ قلبَ هذا التاجر ، ويحبّبَ إليه المقامَ عنده ، وأن يتزوّجَ ابنتَه ، ليغنَمَ أمواله وبضاعتَه — وكان الوزيرُ قد خطبَ ابنةَ الملكِ لنفسِه ، فأبتْ أن تتزوجَه .

فقال : لا أزالُ أعتقدُ أن هذا الرجُلَ كذابٌ ، وستضيعُ ابنَتَك ، وتزوجُها رجلا فقيرًا محتالا ، وقال الملك : أَلأنكَ خطبتَ ابنتي لنفسِكَ فأبتْ ، تحاولُ أن تقفِلَ في وجهِها أبوابَ الزواج ، حتى تبورَ وتكون لكَ في النهاية ؟ خيرٌ لكَ ألاَ تذكرَ لي هذا التاجرَ بِسُوءٍ أبدا ، فقد عرفتُ أنكَ لا تُحبُّ الخيرَ لي ولا لبنتي ، كيفَ يكونُ كذاباً وقد عرف الجوهرةَ وثمنَها ، وكانت في نظره حقيرةً بالنسبة إلى ما عنده من الجواهر ؟ إنه إن تزوجَ ابنَتي وأعجبَه جمالُها ، أسبغَ عليها من مالِه وجواهرِه شيئًا كثيراً ، ويظهرُ لي أنكَ لا تحبُّ لابنتي من هذه الخيراتِ شيئًا .

فَسكتَ الوزير وقال في نفسِه : وما ضركَ أنْ نُغرىَ الكلابَ بالبقَر ؟ ثم أقبلَ على التاجرِ معروف وقال له : إن الملكَ أحبكَ ويريدُ أنْ يزوجَك ابنته ، وهيَ من الُحسنِ والجمالِ والأدب فيما لا تجدُه في بنتِ مَلكٍ من المُلوكِ ، فما رأيك ؟

فقال معروف : لا بَأسَ ، ولكنْ بعد أن تحضرَ بضاعتي ، حتى أدفعَ صداقَها ، وأوزع كثيرًا من الهدايا ، ولن أقبلَ ذلك حتى أدفعَ لها خمسة آلاف كيسٍ مهراً ، وأتصدق على الفقراء بألف كيسٍ ليلةَ زفافها ، وأمنح ألف كيس لمن يحضرون هذا الزفاف ، وألف كيس للعساكر ، ومائة جوهرة للملكة صبيحة الزفاف ، ومائة جوهرةٍ للجوارى والخدم ، وأكْسُو ألف عريان أفعل كلّ أولئك تعظيماً للعروسِ وبيتِ المُلكِ ، ولا أستطيعُ أن أقومَ بشيءٍ من هذا إلا إذا جاءت البضاعة ،

فنقلَ الوزير كلَّ هذا الحديث إلى الملك ، فقال له : كيف تقول عنه بعدَ هذا إنهُ كذاب ؟

فقال الوزير : ولا أزالُ أقولُها ، ولا أحِيدُ عنها ، فوبَّخه الملك وقال : إنْ لم تكُفَّ عن ذلك القول قتلتُك ، فارجعْ إليهِ ، وأحضرهُ لى ، ولا دخلَ لكَ بيننا بعدَ ذلك ، فأحضرَه الوزير ، واستقبله الملكُ بالبِشرِ والسُّرور ، وقال :

لا تعتَذِرْ بإبطاء البضاعة ، فعندَكَ خزائني تحت تصرفك ، فأنفِق منها ما تشاءُ منْ غير حساب ، وسأصبِرُ عليكَ حتى تأتِي بضاعتُك . وحينئذٍ يكونُ المالُ جميعه مالكَ ومالَ زوجك .

وأحضرَ شيخَ الإسلام ، وأبرمَ عقد الزواج ، وأخذَ فى إعدادِ العدةِ لإقامةِ الأفراح ، فنُشِرَتْ أعلامُ الزينة ، ودقت الطبول ، وغرّدت المزامير ، وصُفت الموائد ، وحَفلت الملاعب بالمتفرجين .

وجلسَ معروف عَلَى كرسيه ، وجعلَ يُعطى اللاعبين ، ويُحسنُ إلى الفقراء والمساكين ، وخازنُ الملكِ يأتيه بالذهبِ والفضة ، كلما وزعَ ما أخذه ، والوزيرُ يرَى كل هذا ، وصدرُه يتقدُ غيظًا ، ويودُّ أن يتكلَّم ولكنهُ يخافُ الملكَ أن يضره ، فمالَ إلى معروفٍ وأسرَّ إليه قائلاً :

أما كفاكَ أموالُ التجار التى أضَعْتهَا ؟ ألم يأنِ لكَ أن تكُف عنْ خِداعِ الناس ؟ لقد ألقيتَ بنفسِكَ إلى التهلكةِ ، لأنكَ خدعتَ الملكَ ،

وأضعتَ مالَه ، وسوفَ يحلُّ بكَ الهلاكُ ، إذا بانَ كذبُك .

فقال معروف : وما شأنكَ أنتَ الآن ؟! وسأردُّ إلى الملكِ والتجار أموالهم إذا حضرت بضاعتي، ويقولُ في نفسه :

ليكنْ ما يكون ، فكلُّ شيءٍ قدر ، فما عنه مفرّ ، ولبثَ الفرحُ أربعين يوماً ، وفي اليوم الحادي والأربعين زُفت ابنةُ الملكِ إلى زوجها معروف : في حفلٍ جمع الأمراء والولاة والوزراء والجنود والقضاة ، والأعيان والوُجهاء ، وجمْهرةً عظمى من الأغنياء والفقراء .

فلما دخلَ على عروسِه وجَدها في ثيابٍ حريرية بيضاء ، وقد جلسَتْ على سريرها كأنها البدرُ في السماء ، ونجومُ اللآلئ فوق رأسِها يتجاوبْنَ بالأضواء ، فجلسَ عَلَى كرسيّ من الكراسي المصفوفة ، وأطرق إطراقةً طويلة ، ثم رفعَ رأسه ، وجعلَ يقلبُ كفيْهِ وهو يقول :

لا حولَ ولا قوة إلا بالله . . .

فقالت العروس : سلمتَ من كلّ شرّ وعوفيت ، ماذا أحْزَنَك؟

فقال معروف : كيف لا أحزَن وقد وضعني والدك في أحرج المواقف

فقالت : وكيف ذلكَ وقد زوجَك ابنتَه . وفتح لكَ أبواب خزائنه ؟ !

فقال : ذلكَ سببُ حزني ، فقد أدخلني بكِ قبل أن تأتيَ بضاعتي ، وكان بودِّي أن يكونَ مَعِي في ليلةِ زفافكِ مائةُ جوهرة ، أهبُها لجواريك لكل جاريةٍ جوهرة ، تذكرُكِ بها كلّ ساعة .

فتقول : منحنى هذه الجوهرة سيدى ، ليلةَ دخوله بسيدتى ، وذلك تعظيماً لمقامك ، وتشريفاً لمنزلتك ، فإنى لا أقصرُ فى بذلِ الجواهِرِ الثمينة ، إذ أملِك منها عددا وفيرا .

فقالت : لا تعكر صفوكَ ، ولا تشغَلْ بالك ، فمدى إكرام الجوارى واسعٌ أمامك . وأما أنا فإنى فرحة بك . وأما الجواهرُ فإذا جاءت البضاعةُ أخذتُ منها القدرَ الذى تقرّ به عيناك ، فقم الآن واطرح عن نفسكَ كل همّ وغمّ ، واجعلْ هذه الليلةَ فرحةً مرحةً ، باجتماعنا على بساطِ الأنسِ والألفة ، فانفلت من قيودِ همّه ، وجلسَ إليها جلسة هنيئةً باسمة ضاحكة ، وانقضتْ تلكَ الليلة . على هذه الحالة ، وقد وقع بينهما ما لا يتدارك .

وفى الصباح استحمّ ولبسَ حلةً ملوكية ، وذهبَ إلى إيوانِ الملكِ ، فقوبلَ بالإعزازِ والحفاوة والإكرام ، وأقبلَ عليه الوزراء والكبراء يهنئونهُ ، ويدعونَ له بالرفاء والبنين ، وفى أثناء ذلك يعطى ويهب ، حُللا وذهباً وفضة ، كلّ امرئٍ على قدرِهِ ومكانته ، وكلما نفِدَ ما فى يده أمدّه خازنُ الملك بما فى خزائنه ، حتى أوشكتْ أن ينفَدَ ما فيها .

وانتهزَ الخازنُ فرصة غياب معروف وقال للملك ، وكان وزيرُه بجانبه :

أيأذنُ لِىَ الملكُ أن أخبرَه بشىء ، إن أنا كتمتُه كنتُ مقصّرًا وملوماً .

فأذنَ له فقال :

إن الخزانة أوشكتْ أن ينفدَ ما لها ، وبعد أيام قلائل ، لا نجدُ فيها دِرْهما ، فالتفت إلى الوزير وقال :

إن بِضاعةَ مَعروفٍ نسيبى لم نَسمعْ عنها خبرًا ، ولم نجِدْ لها أثرًا ، ولا نَدْرِى لماذا أبطأتْ وتأخرَ حضورُها ؟

فضحِك الوزير وقال :

عافاك الله ، إنكَ مخدوعٌ بقولِ هذا الـكذاب ، وهو رجلٌ فقيرٌ لا يَملِكُ شيئًا ، وقد غرّك فعلُه . فوثقت بقوله ، حتى أتلفَ مالَك ، وتزوجَ ابنتَك من غير شيء ، وقد نصحتُ لكَ من قبل ، فلمْ تقبلْ نصحى ، ولا أعرف سببًا يجعلكَ تسكتُ عنه . حتى الآن .

فقال الملك : وماذا ترى أن نفعلَه ، لمعرفةِ حقيقةِ أمرِه ؟

فقال الوزير : يا ملكَ الزمان ، لا يستطيعُ أن يَطّلعَ على سِرِّ الرجل إلا زوجُه ، فأرسلْ إلى ابنتكَ لأحدثها من وراء سِتار ، وأعلمَها كيف تطلعُ على سِرّهِ

فجاءتْ إلى حجرةِ الجلوس ، وجلستْ على كرسىّ قوائمه مطعّمة بالذهبِ والفضة ، خلفَ ستارة حريرية ، وكان حضورُها فى غيبة زوجها

فقالت : ما تريدُ يا أبى ؟

فقال : أريدُ أن تُكلمِى وزيرى .

فقالت : وما تريدُ أيها الوزير ؟

فقال : اعلمى يا سيدتى أن زوجكِ أتلفَ مالَ أبيك ، وتزوجَكِ من

غير شيء ، وهو لا يزالُ يعدُنا بحضورِ بضاعتِه من حين إلى حين ، وقد طالَ علينا أمدُ انتظارها ، ولم نسمعْ عنها شيئاً ، حتى ساورَنا الشكُّ في قولِه ووعده ، وأريدُ أن تقولِي لنا ما عرفتِه عنه في هذه المدة .

فقالت : شأني شأنكم ، وهو لا يزال يعدني ويُمنِّيني ، ولكنِّي لم أجدْ بضاعة ، ولا جواهرَ ولا ذهبا ولا فضة .

فقال : هل تقدرينَ الليلة أن تتحدثي إليه ، وتتوددِي له ، حتى يزيدَ أنسُهُ بك ، واطمئنانُهُ إليكِ ، ثم تقولى له :

إني أنا زوجُك المخلصة ، وشريكتُك في البَسمةِ والغضبَة ، لَنْ أفرط في جَنبِك ، ولَنْ أفكرَ في غيرك ، فأخبرني عنْ حقيقةِ بضاعتِك وأمرِك ، حتى أُدبّرَ لكَ ما يحميكَ ويحفظُكَ ، ولا تزالين به ، حتى يعترِفَ لكِ بالحقيقة ، وبعد ذلك تخبرين والدَك .

فقالت : سمعاً وطاعة ، وسأعرِفُ كيف أطلعُ على باطِنِ أمره .

ولما دخلَ زوجها معروفٌ عليها بعد العشاء حسبَ عادته ، أخَذتْ تحادثُه . وتضاحكُه ، وتُريه أنها من نفسِه ، كنفسِهِ من جسمِه ، فاطمأن كل الاطمئنان ، وهيأتْهُ هي أنْ يبوحَ بكل ما كان ، ثم قالت :

كم تدّعِي أنكَ تاجرٌ كبير ، وأن بضاعتَك في طريقِها إلى المدينة ، ولكنها تأخرت حتى أيقظتَ في النفوس القلَقَ من أجلِها ، واليأسَ منها ، وحيلةُ الكذابِ لا بقاء لها ولا دوام ، وأخشى أن يظهرَ أمرُك قبلَ أن نعدَّ له عُدتَه ، فيغضبَ عليكَ أبي ، ويُشمِتَ فيكَ أعداءك وأعدائي ،

ولا تخش شيئاً إن لم تكن لكَ بضاعةٌ حاضرة ، فسأدبّر أمرك تدبير مخلصة تحبُّكَ وتبقى عليك .

فقال : اسمعي قولَ الحق ، وبعدَ ذلك افعلي بي ما تشائين .

فقالت : إنْ كان صِدْقاً فعاقبتُه النجاة ، فقال : لم أكنْ تاجراً ، ولم تكن لى بضاعة ، ولكنى كنتُ فى مِصرَ إسكافياً ، ولى زوجةٌ تسمّى فاطمةَ العرّة وجعلَ يقصّ عليها تاريخ حياته ، إلى جلْسة الاعترافِ هذه . فضحكتْ وقالت : ما أمهرَكَ فى الخديعة والكذب ! ! فقال : يسّرَ اللهُ لكِ سبيلَ حمايتى ، وستَرْ عَيْبى ، ودفعَ الهمّ عَنى ، فقالت : إنك غششْتَ أبى حتى ضيعتَ مالَه ، وتزوجتَ ابنتَه ، دونَ شيءٍ دفعتَه وله وزيرٌ لا ينفَكُّ يذكركَ بسوء ويقول : إنك كذاب ، وأبى لا يسمعُ له قولا ، وإذا عرف أبى حقيقة أمرك ، قتلكَ أشنع قتلة ، وكان هذا القتل لى سُبّةً ومَعرّة ، ربما زوّجَنى بغيرك ، وأنا قد أحْببتُكَ وأخلصتُ إليكَ ، ولا أبغى أحداً سِوَاك ، ومن الخلق الكريم ألا أفرِّط فيك ، وأن أدفعَ عنكَ خطراً ينتظِرُك ويأتيك . فقم الآن قبلَ أن يطلع النهار ، والبسْ حلةَ مملوكٍ من المماليك ، وخذ معكَ من مالى خمسين ألفَ دينار واذهب إلى بلدةٍ لا ينفذُ فيها حكمُ أبى ، واتجرْ هناك بهذا المــال ، وأرسلْ إلىّ من حينٍ إلى حينٍ رسولا ، يعرفُنى حالتك ، وأبعثه إليك بما تحتاجُ من مال ، فإن مات أبى أحضرتك ، وإن متّ أنا أو متّ أنت فإلى رحمة الله ، والقيامةُ تجمعُنا ، وأستودِعُكَ الله ، فأسرِعْ

واخرج من المدينة خِفية ، قبل أن يأتى الصباح ، ويظهرَ الأمر ، ولا نستطيع دفع العاقبة .

لبس معروف حلةَ مملوكٍ ، وركِبَ جواداً وسار ليلا ، فظن كلُّ من رآه أنه من المماليك ، وأنه مُسافرٌ لقضاء حاجةٍ لسيده المليك ، فلما طلع النهارُ أحضرها أبوها فى حجرةِ الجلوسِ خلف الستارة ، وكان وزيرُه معه ، فسألها أبوها : ماذا وقفتِ عليه الليلةَ من أمرِ زوجك ؟

فقالت : سوَّدَ اللهُ وجهَ وزيرِك ، فقد أرادَ أن يُسَوِّدَ وجهى أمام زَوجى . فقال : وكيفَ ذلك يا بنتى ؟

فقالت : دخلَ علىَّ زوجى ليلة هذا اليومِ ، التى تنتهى بطلوع فجره ، أو طلوع شمسِه ، وقبلَ أن أبدأه بالكلام جاءه « فرجٌ المملوك ومعهُ كتاب » وقال : إن عشرةَ مماليكَ بباب القصر ، وقالوا : قبِّلْ لنا يدَ سيدنا معروفٍ التاجرِ ، وأعطِه هذا الكتابَ ، وبلِّغه أننا من مماليكه ، جئنا مع بضاعتِه ، وقد بلغَنا أنه تزوجَ بنتَ الملك . فجئنا لنخبرَه بما حدث لنا فى الطريق ، فأخذتُ الكتاب وقرأتُ فيه :

« من المماليك الخمسمائة إلى حضرةِ سيدنا التاجرِ معروف : نخبرُك أنه بعدَ أنْ تركتَنا ، طلعَ العربُ علينا ، وعددُهم ألفان ، ووقعَ بيننا وبينَهم حربٌ شديدة دامت ثلاثين يوماً ، وهذا سببُ تأخرنا ؛ وقد نهبوا من بضاعتنا مائتى حِمل ، وقتلوا منا خمسين مملوكاً » . فقال زوجى : خيبَهم الله ، ما كان لهمْ أن يحزَنوا أو يتأخَّروا ، من أجلِ مائتى حملٍ

من البضاعةِ نُهبتْ أو ضاعتْ ، فإن هذا القدرَ لا ينقصُ من مالى شيئاً ، فلأذهب الآن لاستعجالهم ، وسأتركُ للعربِ الأحمالَ التى نهبوها ، كأنى تصدقتُ بها عليهم .

ثم نزل مُبتسماً ضاحكاً ، كأن لم يُنهبْ شىء من مالِه ، ولم يُقتلْ أحدٌ من مماليكه . ونظرتُ إليه من شباكِ القصر ، فرأيت عشرة مماليك كأنهم أقمار ، وعليهم حُللٌ قيمةُ كل واحدة ألف دينار . وتوجّه معهم إلى حيثُ بضاعتُه ومماليكُه ، وحمدتُ الله الّذى حفظ لسانى ، فلم أتكلمْ بشىءٍ مما أشارَ به وزيرُك ، الذى لم يسكتْ عن الوشاية بزوجى ، ووصْفه بما لا يليقُ به . وهذا ما كان فى الليلة الماضية .

فقال أبوها : يا بنتى ، ما شككتُ لحظةً فى صدقِ زوجك ، وإنّ مالَه كثير ، وسيأتينا به عنْ قريب ، وسننال منه خيرًا عظيماً ، والتفتَ إلى وزيره فوبّخه وقال : إياك أن تظنّ بالناسِ ظنّ السّوء ؛ فلن يكون ذلك إلّا من حاقد حاسد . وانطلتْ على الوالدِ حيلةُ ابنته .

ركب معرُوفٌ جوادَه ، وخرجَ إلى البرية ، وهو فى حيرة مظلمة ، لا يدرى فيها إلى أين يَذْهب . واستمر سائراً كالسكران إلى وقت الظهيرة ، وكانَ على مقربة مِن بلدةٍ صَغيرة ، فرأى رجلاً يحرث فى أرضه، فأحبّ أن يذهبَ إليه ، لعله يجدُ عنده لقمة يطفئُ بها لهب جوعه فقال : السلام عليكم ، فردّ الحراثُ عليه السلام ، وقال :

أهلاً ومرحباً ، هل أنت منْ مماليك السلطان ؟

فقال نعم، فقال: لا بد أن تنزل عندى ضيفاً، فقال ولكني لا أرى عندك طعاماً أطعمه، فقال: خيرُ الله كثير، والبلدةُ قريبةٌ منا، فتفضلْ وانتظر لى هُنا حتى أُحضرَ غداءك، وشيئاً يأكله جوادُك.

فقال: ما دامتْ قريبةً منا، فمن السهل أن أذهبَ إليها، وأشترىَ من سُوقها ما أشاء، فقال: البلدةُ صَغيرةٌ، وليس فيها سوق، ولا بيعٌ ولا شراء، وأسألكَ باللهِ أن تجبر خاطرى. وتشرفني بضيافتك، وسأرجعُ إليكَ من البلدة بسرعة، فرضى معروف ونزل.

وذهب الفلاح إلى البلدة، ليحضرَ الطعامَ وما يلزم للجواد، فقال معروف فى نفسه: لقد شغلْنا الفلاحَ عن عمله، ومن المروءة أن أُساعدَه، ثم قام إلى محراثه، وجعل يحرثُ أرضَه، فعثَرَ المحراثُ فى شىءٍ أمسكه، وجعلَ الثورَينِ لا يستطيعان جرَّه، على الرغم من حثّهما على السيرِ وضَربهما، فبحثَ عن ذلك فوجدَه عالقاً فى الأرض بحلقةٍ من ذهب، فكشفَ عنها التراب، فرآها وسط حجرٍ من المرمر، كأنه قاعدةُ الطاحونة، فنزعه مِن موضعِه، فوجدَ من تحتِهِ سُلّماً، فنزل فيه، وانتهى منه إلى مكانٍ فى سَعةِ الحمام. له أربعة أواوين، ووجدَ بالإيوانِ الأولِ ذهباً، وبالثانى لؤلؤاً وزُمرداً ومَرجاناً، وبالثالثِ ياقُوتاً، وبالرابع ألماساً ومعادنَ نفيسة، وجواهرَ مختلفة، ووجد فى صدر هذا المكان صندوقاً من البلور، مملوءاً بالجواهرِ اليتيمة، وكل جوهرةٍ منه فى حجم الموزة، وفوقه علبةٌ صغيرةٌ من ذهبٍ فى حجم الليمونة، ففرحَ معروف وفتحَ العلبة

الصغيرة الذهبية ، فوجدَ فيها خاتماً ذهبيًّا عليْه كتابةٌ وطلاسم كأرجل النمل المبعثرة ، فعركَ الخاتمَ بأصبعه ، فإذا بمخلوقٍ ماثل أمامَه يقول :

لبّيك يا سيدى لبّيْك . فمُرْ تُطَعْ ، واطْلبْ تعطَ ، فإنْ أردت منا فتح مدينةٍ ، أو تخريبَ بلْدة ، أوْ حفرَ نهرٍ ، أو نقلَ جبلٍ ، أو قتلَ مَلكٍ ، أو غيرَ ذلكَ فعلناه بإذنِ الملكِ الجبار ، خالقِ الليل والنهار ، الذى بيدِه كل شيءٍ ، وهو الواحدُ القهار .

فقال معروف : يا مخلوقَ ربى ، ومن أنت ؟

فقال : أنا خادمُ هذا الخاتم الذى فى يَدِك ، أقوم بخدمةِ من يملكُه ، والائتمارِ بأمرِه ، مهما يكنْ شأنُه ، فإنى سلطانٌ من الجانّ ، وعدةُ عسكرى اثنتان وسَبعون قبيلة ، وعدة كل قبيلةٍ منها اثنانِ وسبعون ألفاً ، وكل واحد يحكُم ألف وكل ماردٍ يحكم ألف عَوْنٍ ، وكل عونٍ يحكم ألفَ شيطان ، وكل شيطان يحكم ألف جنّىّ ، وهؤلاء جميعُهم فى طاعتِى ، ولا يقدرون على مخالفتِي ، وقد حُبِسْتُ لخدمةِ هذا الخاتم ، وطاعةِ من يَملكه ، ولن أقدِرَ على مخالفةِ أمره ، وها أنتَ قد ملكتَه ، فأصبحتُ فى طاعتك ، فمرنى بما تشاء ، وإذا احتجتَ إلىّ فى أى وقتٍ فادعَك الخاتمَ بأصبعِك ، تجِدنِى بين يَديْكَ ، وإياك ، أن تدعكه مرتين متواليتين فى لحظةٍ واحدة ، فإنك إن فعلتَ ذلك أحرقتَنِى ، وخَسِرْتَ خدمتِى ، وندمتَ حيثُ لا ينفعُ الندمُ ، فقال معروف : وما اسمُك ؟

فقال اسْمِى أبو السعادات .



فقال معروف : يا أبا السعادات ، وما هذا المكان ؟ ومنْ حبَسكَ لخدمة هذا الخاتَم ؟ فقال : هذا كَنزُ شدادِ بنِ عاد ، الذى عمر إرَمَ ذاتَ العِماد ، التى لم يُخلقْ مِثلُها فى البلاد ، وهذا خاتَمُه ، وكنتُ خادِمَه فى حياته ، فأصبحَ كلُّ هذا من نصيبك ،

فقال معروف أَخرِجْ يا أبا السعاداتِ ما فى هذا الكنزِ على وجْهِ الأرضِ ، ولا تُبقِ منه شيئاً ، فأشارَ أبو السعاداتِ إلى الأرضِ بيده . فانشقَّتْ وغاصَ فيها ، ثم رجَع بعدَ مدةٍ قصيرة ، ومَعه غلمانٌ صغارٌ حِسان ، فجعلُوا ينقلونَ ما فى الكنزِ حتى لم يَبقَ فيه شىء .

ثم طلبَ معروف إليه أن يضَع كل شىء أَخرجَه ، فى صناديقَ تحملها بِغال ، فزعقَ أبو السعاداتِ زعقةً قوية ، فجاءه ثمانمائة عون ، وأمرَ أن ينقلبَ بعضُهم مماليك لا نظير لَهم فى الجمالِ عند أى ملكٍ من ملوكِ الدنيا ويتحولَ الآخرون إلى بِغالٍ أقوياء ، فكانوا فى لمح البصر كما أمر ،

ثم صاحَ صيحةً كان كثيرٌ من أعوانهِ فى أثرها بينَ يدَيه ، فأمرهم أن يتحولَ بعض منهم إلى خيلٍ سُرُجُها من ذهب ، وأن يحضروا صناديق ويضعوا فيها جميعَ ما أخرجَ من الكنزِ . ففعلوا ما أمرَ به .

وقال معروف : أريدُ أحمالاً من نفيس القماش ، فقال أبو السعادات : أتريد قماشاً مصريًا ، أم شاميًا ، أم أعجَميًّا ، أم رُوميًّا ؟ .

فقال : من كلِّ صنفٍ مائة حِمل ، على مائةِ بَغل ، فقال : أَعطنى مهلَة لإحضار ذلك ، فقال : كم من الزمن تحتاج ؟ فقال : لا يأتى صَباحُ الغدِ

حتى يكون ما أردْتَ ، فأمره أن ينصب له خيمةً يستريحُ فيها حتى صباح الغد ، فنصبَ الخيمة ، وصُفَّتْ فيها الكراسىّ ، ووضع فى وسطها السماط ، ومنْ حولها المماليكُ الحسان

ثم قال أبو السعادات لمعروف : استرِحْ فى هذه الخيمة ، والمماليكُ فى خدمتِك ، حتى أقوم بإحضار القماش الذى طلبت ، وانصرف إلى سبيله ، وبَيْنما معروفٌ جالسٌ فى خيمته إذ أقبلَ الفلاحُ ، يحملُ قصعة من العَدسِ ، ومخلاةً مملوءةً شعيرًا ، فدهش أن رأى خيمة مَضْروبة ، ومن حولها مماليكُ قد وقفوا فى خُشوع ، وظنّ أن الملك نزل بهذا المكان . فقال فى نفسه :

ليتنى ذبحتُ دَجاجتين لأقدمَهما إلى السلطان ، وهَمَّ أن يرجعَ إلى بيتهِ ليذبَحَهما ، فرآه معروف وناداه ، وأمرَ المماليك أن يُحضرُوه إليه ، فجاءوا به ، وبقصعةِ عدسهِ ومخلاته ، وسأله معروفٌ عنهما .

فقال : هذا العدسُ غداؤُك ، وهذا الشعير لحصانِك . ولا تؤاخذنى بهذا التقصير ، فلو علمتُ أن الملك سَيشرفُ حقلى لأحضرتُ له دَجاجتين ، وتشرفت بضيافته ضيافةً تليقُ بمقامه ، فقال معروف . اطمئن فإن الملك لم يجئْ ، وإنما أنا نسيبُه . وخرجتُ من قصره غاضبًا ، فبعث إلىّ ما ترى من المماليك وصالحونى ، وأحبُّ الآن أنْ أَعودَ إلى المدينة ، ولكنك قد أكرمتَنى ، وهيأتَ لى هذا الطعام الذى أحضرته ، ولا بُدَّ أنْ أُكرمكَ فلا آكلُ إلا منْ عدسِك ، ولكَ أنت هذا الطعامُ الذى جاء به المماليكُ ،

فكلْ منه ما تشاء ، وأكلَ معروف عَدساً حتى شبع ، وملأ الفلاحُ بطنَه من ألوان الأطعمةِ الفاخرة ، ثم ملأ معروف قصعةَ الفلاح ذهباً وقال له :

إذهبْ بها إلى بيتك ، ثم تعالَ فى المدينة ، لأزيدَ فى إكرامك .

حَمل الفلاح قصعتَه ، وساق ثيرانَه أمامَه ، ورَجَع إلى بلده ، وهو يعتقدُ أن معروفاً نسيبُ الملك ، وبات معروف فى الخيمة ، فى لذةٍ ومَسرَّة؛ إذ جيء له بمرائس الكنوز ، وقضين وقتاً طويلاً فى الغناء والرقْصِ والضربِ على الآلاتِ الموسيقية .

وانكشفَ صباح الغد عن سبعمائة بغل تحملُ أقمشة . وحوالَها غلمانٌ وخَدم ، يَتقدّم هؤلاء أبو السعادات على بغلَته ، ومعه تخْتٌ مرصعٌ بالجواهر والذهَب . فلما وصلَ الخيمةَ حيَّا معروفاً وقال : أحضرت ما طلبت ، وهذا تختٌ فيه حُلةٌ ملوكية لا مَثيلَ لها عند أحد ، فالبَسْها وَمُرْنا بما تريد .

فقال : سأكتبُ كتاباً تذهبُ به إلى الملك فى مدينة خيتان الختن ، وتناولُه إياه وأنت فى صورةِ ساعٍ أنيس .

فقال : سَمعاً وطاعة ، وكان الملكُ جالساً هووزيرُه ويقول : إن قلبي مع نَسيبي ، وأخاف أن يقتلَه العرب . ولو عرفتُ أين ذهبَ لتَبعتُه بجُندى ، ولو كنتُ أعلمُ ما تركتُه يسيرُ وحدَه ، وأرجو أن يكونَ له من كرَمه ، وحُبِّه الخيرَ للناس شفيعٌ عند الله ؟ فيحميه من كلّ مكروه ،

فقال الوزير : لطفَ اللهُ بك ، ونجاكَ من شرّ ما تعتقِدُ فى نَسيبك ، لقد عرفَ أننا انتبهْنا إليه ، فخاف الفضيحـةَ وفرّ هارباً ، وما هُو عندِى إلا كذَّاب ابن كذاب ، يستحقُّ كلَّ نكالٍ وعذاب ، وبينما هو كذلك إذ دخلَ الحاجب فقال : بالباب رسولٌ إلى سيدى الملك ومعه كتاب ، فأمر أن يأتيهِ به ، ولما دخلَ الرسولُ حيَّا الملك ودعا له بدَوامِ اليُمنِ والنِّعمة ، سألهُ الملكُ : مَن أنتَ ؟ وما حاجتُك ؟

فقال : ساعٍ من عندِ نسيبك ، أمرنى أنْ أعطِيكَ كتابَه هذا ، فقرأه الملكُ فإذا فيه : « بعدَ السلامِ على الملكِ العزيز ، قد جاءت البضاعة ، فقابلِنى بجُندكَ على أبوابِ المدينَة ، ففرحَ وقال للساعِى : سلّمْ على سيدك ، وأخبِرْهُ أنى سأستقبِــلُه بجُنودِى ، على أبواب مَدِينتى ، وأذِنَ له أن ينْصرف ، ثم التفت إلى وزيره .

وقال : سوّدَ اللهُ وجْهكَ ، كم أسأتَ إلى نسيبى ، ووصفتَه بالكذب وقُبحِ الخديعة ، فكنتَ بذلك غاشًّا ظلُوما ، فخجِلَ الوزير وقال : ما حَملنِى على هذا القولِ إلا طولُ غَيبةِ البضاعة ، وحرصى على المليك أن تضيعَ أموالُه .

فقال الملك : الحمد لله ، فقد حضَرت البضاعَة ، وسَيكونُ لى فيها خَيرُ العِوض ، وأمر الملكُ فى الحال أن تتزينَ المدينة بأعْلامِها المرفرفة ، وغيرها من مَظاهِرِ البهجَة والزينة ، وقامَ إلى بنتِه .

فقال : أَبشرِى ، فقد سعِدتْ أيامُك ، وباركَ اللهُ لكِ فى زوجك ،

فقد بعثَ إليَّ كتاباً يطلبُ فيه أن أقابلَه بجنودى ، وهو حاضرٌ بيضاعتِه ، وأنا ذاهبٌ الآن للقائِه ، وقد أمرتُ أن تأخُذَ المدينةُ زُخْرُفَها وزينَتها ، فقالت : الحمد لله الذى ردّه إلينَا سَالِماً .

ثم قالتْ فى نفْسِها ، وهى فى أشدّ حالات العجَبِ من أمرِ زوجها : ما هذا ؟ أكان يسخَرُ مِنّى حينَ اعترف لى بفقْرِه ، أم كان يختبرنى ؟ ! ! ولكنْ أحمدَ اللهَ الذى وفقنى إلى الدفاع عنه ، وعدم التفريط فى جَنْبِه .

وكانَ علىّ المصرىُّ قد فوجِئَ بأنْ رأى المدينةَ لابسةً حللَ زينتها ، فسأل عن سَبَبِ ذلكَ فقيلَ له : إن ذلك أمرُ المليك احتفاءً بقدُوم نسيبه ، وحُضورِ بضاعتِه ، فعجِبَ عجباً شديدًا وقال فى نفسِه : لقد جاءَ معروف إلى المدينةِ فقيراً ، وسُلِّطَ على أموالِ التجارِ والملكِ فضيّعَ منها كثيراً ، فكيف ومن أين جاءت له هذه البضاعةُ ؟ لعلّ بنتَ الملك دبّرتْ له أمرَها ، لتستُرَ أمرَ زواجها من غير أنْ يدفعَ لها مَهراً ، والحمدُ للهِ الذى كَتَبَ لهما السترْ والحماية من المَعَرّة ، وكانَ فرحُ التجارِ الذين أقرضوهُ أموالهم عظيما إذ أشرقَ لهم الأمل فى ردِّها إليهِمْ أضعافاً مُضاعفة ، لسَخاءِ معروفٍ وكَرمه ، ثم خرج الملك وجنوده لاسْتقبالِ نسيبه

أما أبو السعاداتِ فقد رجعَ إلى معروفٍ وأخبرَه أَنه بلغ الرسَالة ، وأن المليكَ أخذ أهبته لاستقباله وسار معروف بموكبه وبضاعتِه ، وأبو السعاداتِ وأتباعُه من حوله ، ومِنْ حولِ بضاعتِه ، حتى التقى بالملك ومنْ مَعَه ، فرآه فى حلةٍ ملوكيةٍ ، لم يرَ مِثْلها على أحدٍ من الملوكِ ، فزادَ

يقينُه ، بما يطمع فيه من مال وثروة ، وسلّم عليه هو ووزراؤه ، وكبراء دولته ، وأعيانُ مدينته . ثم صاحَبُوه إلى المدينة ، فدخلها فى حفل رائع لا نظيرَ له ، وجاء إليهِ التجّارُ من كل جهة ، يسلمونَ عليهِ ويهنئونه ، وأسرَّ عليٌّ المصريُّ إليهِ بقولهِ : كنت شيخ الكذابين ، ولكنّ الله أكرمَك وعصمك ، فجعلَكَ من الصادقين ، لأنك صبرْتَ على أذى زوجك ، وأسلمتَ الأمرَ إلى ربك ، فكتبَ لكَ أجرَ الصابرين ، الذين إذا أصابتْهم مصيبةٌ قالوا إنا للهِ وإنا إليهِ راجعون ، فضحكَ معروف وقال : إن العزّةَ للهِ ولرسولهِ والمؤمنين .

وفى قصرِ الملكِ أمر معروف أن نفُكّ أحمالُ القماش ، وأرسلَ منها إلى زوجه ، لتوزعَ على جواريها ، ونفح التجّار بما يساوى أضعافَ أموالهم التى اقترضها منهُم ومنح الفقراء والمساكين منها قدْراً كبيراً ، وجعلَ يبسُط يدَه بالعطاء ، فى كرم وسخاء ، حتى شمل القريب والبعيد ، ثم جعلَ الباقى من بضائع وجواهر ، وذهب وفضة ، فى خزانة الملك ، وقامَ إلى زوجه فى مقصورتها ، فقابلتْهُ فرحةً ضاحكة ، وقبلتْ يدَه ، وقالت : أكنتَ تهزأُ بى أمْ تختبرنى ، حين أخبرتنى أنك فقيرٌ هاربٌ من زوجك ، أمْ ماذا كنتَ تريد ؟

فقال : أحببْتُ أن أختبرَ إخلاصَكِ لى ، وأتبيّنَ هلْ رغبتِ فى زواجى من أجل ثروتى ومالِى أو مِنْ أجلى ، فعرفتُ صدقكِ ووفاءكِ ، وأن متاعَ الدنيا لا قيمة له فى نظركِ ، وذلك ما يجبُ أن تكون عليه الزوجة .

ثم اختلى فى مكان ودعكَ الخاتم فحضر أبو السعادات ، فأمره أنْ يحضر لزوجه حلةً ملوكية ، وعقدًا به أربعون جوهرةً يتيمة ، وكثيرا من الحُلِيّ ، ففعلَ فى الحال ، ودخلَ معروف بكل أولئكَ على زوجه ، ووضعَه بينَ يديْها ، فابيضّ وجهُها فرحًا ، وتألق سرورًا ، ووجدتْ منْ بينِ الحلىّ خلخالين من ذهب مرصّع بالجواهر . ومن صُنع الكهنَة ، وأساورَ وأقراطًا ، لا تفِى بثمنِها أموالُ أبيها ، فأشارتْ عليه أن تحفظَ الحلّةَ إلى أوقاتِ المواسم والأعياد والحفلات . ولكنهُ أمرَها أن تلبسَها كلما شاءتْ ، فعندَه منها شىءٌ كثير ، ثم اختلى مرة ثانية ودعك الخاتم وأمر خادمه أن يأتيه بمائةِ حلةٍ ومعها حُليها ففعل ، ثم وزعها على جوارِى زوجتهِ ، لكل جاريةٍ حلتُها وحُليُّها ، وطارَ نبأُ هذا الذى فَعله إلى الملك ، فأقبل فرِحًا إلى ابنته ، وهنَّأها بزوجها وسعادتها به ثم ذهبَ إلى عرشهِ ، وأحضر وزيرَه وأخبرَه .

فقال الوزير : إن الذى رأيتُه ، والذى أخبرْتنى به ، لا يُعقَلُ أن يكونَ من تاجرٍ ، لأن التاجرَ مهما يحسُنْ حظّه . ويعظم ربحهُ ، فلن يحْصُلَ على هذه الأموالِ التى يخرجُ الحصولُ عليها عنْ طوْق البشر ، ولا بدّ أن يكونَ فى الأمرِ شىءٌ لا نعلَمُه ، وسرٌ لا نُدركُه ، فإن جمعتنى بنسيبك فى بستانٍ ، وسقيتُه كأْسَ المدام ، استطعتُ حينئذٍ أن أعرفَ منه سِرَّ هذه الحال ، فإن الخمرَ تذهبُ العقلَ ، وتفضَحُ السِّرَّ ، وتجعلُ شاربَها يُفضى بكلّ شىءٍ فى صدرِه . وأرَى الوقوفَ على سِرّ هذه الحال

أمراً واجباً ، فإنى أخشى أن يطمعَ فى ملكِك ، ويحبّبَ إليه الجنودَ والرعية ، بهذا الكرم الذى لا يجاريه فيه إنسان .

فقال الملك : ذلك حقٌّ ، وجديرٌ بالعناية ، وباتا متفقَيْن على هذا .

وفى الصباح جلس الملكُ ووزيرُه ينتظران خروجَ مَعروفٍ من حجرة نومه ، فجاء الخدمُ إليهما ، وعليهم آثارُ همٍّ وغمٍّ عَظيمين ، فسألهم الملكُ عما أصابَهم .

فقالوا : أصبحنا فلم نجد مماليك نسيبك ، ولا الدّوابّ التى كانتْ معهم ، وبحثنا فى كل مكانٍ فلم نعثُر على أثرٍ لهم ولها .

فقال : وكيف كان ذلك ؟ ! ألفُ دابةٍ وخمسمائة مملوك وغيرهم من الخدم يهربون من حيثُ لا تشعرون ؟ !

فقالوا : لم نعرفْ كيفَ هربوا ، ولم نخالفْ نظامنا وعادتنا فى الحراسة ، فقال : انتظروا خروجَ سيدكم معروف ، وَبلغوه الخبرَ ، فلعلّ له فى ذلك مخرجاً ، ولما أخبروه ضحِكَ وقال : لا تغتمّوا ولا تهتمّوا ، وامضُوا إلى سبيلكُم ، فأمرهُم علينا يسير ، وخيرُ اللهِ علينا كثير ، فبلغوا الملك ما قال معروف ، وعدمَ اهتمامه ، كأن لم يضعْ من ماله شىء ، فالتفتَ إلى وزيره . وقال :

لقد احترتُ فى أمر هذا الرجل ، الذى ليس للمال عنده قيمة ، وكأنّ بيدِه مفاتيح كنوز الأرضِ ، فما رأيك فيه ؟

فقال الوزير : نفِّذْ ما أشرتُ به عليك ، فإن الخمر كفيلةٌ بأن تجعله يبوح بسِرِّه .

وحضَر إليهما معروف وهوَ فرحٌ كأنه لم يخسرْ شيئًا ، فتحدثوا قليلا ، ثم عرض عليه الملك أن يذهبُوا سَوِيًّا إلى بستانٍ من بساتين الملك للنزهة ، فوافق على ذلك .

وجلسوا فى بستانٍ أنهارُه جارية ، وأشجارُه مُخضرةٌ باسقة ، وفاكهتُه كثيرة متنوعة ، وأطيارُه مغردَة ، ونسيمه عليل ، وأزهارُه تملأُ الجوَّ عَبيراً ، وأخذوا يتحدثون ، والوزير يعرضُ الطريفَ من النوادر ، حتى جاء وقتُ الظهيرة ، فوضِعَ الطعامُ أمامهم ، وجعلوا يأكلون ، ثم ناولَ الوزيرُ معروفاً كأسا من الخمرِ ، فقالَ له : وما هذا الشرابُ .

فقال الوزيرُ : ذلك شرابٌ وليس خمرًا ، مزيتُه أنه ينعِشُ النفوس ، ويطردُ عن القلب العبوس ، فشربَ الكأس الأولى ، فغاب عن صوابه ، وفقد رشده ، لأنه لم يكنْ من قبل قد شربها ، ولهذا كان سريع التأثر بقليلها ، وحينئذ سأله الوزير : عجِبْنا لغناكَ العظيم ، وكرمِك العميم ، فمن أينَ جاءتْك هذه الأموالُ والجواهر ، التى لا يستطيع الحصولَ عليها من التجارةِ بَشَر ، ولا نجدُها فى عينِ مَلكٍ أنثى أو ذكر ؟ !

فقال معروف : لستُ تاجرًا ، ولا من أبناء الملوك ، وإنما أنا إسكافى ، وزوجتى فاطمة العُرة ، وأخذ يَتلُو عليه حكايتَه حتى النهاية .

فقال الوزير : أتحبُّ أن ترينا هذا الخاتم ؟

فنزعهُ من يدِه وقال : خذوا ، وانظروا ، وتأمَّلوا ، فأخذه الوزيرُ وقال : وهلْ إذا دعكتُه أنا يحضر خادمُه ، فقال : ادعكْه حتى يحضُر ، ثم ترى ، فدعكه الوزير : فإذا بمن يقول : لبيك ، لبيك ياسيدى ، فاطلبْ تعطَ ، ومُرْ تطعْ ، فمهما تطلب أفعل ، من غيرِ إبطاء ، فأمرَه أن يحملَ معروفاً إلى أرض قفراء ، لا نبات فيها ولاماء ، حتى يهلكَه الجوع والعطش ، فحملَه أبو السعادات وطار به .

فقال معروف له : إلى أينَ أنت ذاهبٌ بى ؟

فقال : إلى أرض قفراء ، لا نبات فيها ولاماء ، ولولامخافةُ ربى لألقيتُكَ الآن إلى الأرض فتموت موتةً أليمةً مُفزعة ، لأنه لا يملكُ هذا الخاتمَ إنسانٌ ثم يفرط فيهِ إلا إذا كان مجنوناً ، أو لايستحقُّ إكراماً اولا نعمة ، ثم ألقاه فى أرضٍ ليس فيها إلا الجوع والعطشُ والهلاك .

أما الوزيرُ فإنه التفت إلى الملك لفتة سطوةٍ وغَضَب وقال : كيف رأيتَ صدق فِرَاستى ؟ أما كنتَ تكذبُنِى وتهددُنى ، وتخرسُ لسانِى عن قول الحق ؟

فقال الملك : لقد بانَ لى الآن أن نظرك بعيد ، وأنك عاقل حذِر ، لا يخادِعكَ أحد ، أرنى هذا الخاتم حتى أنظُر فيه ، فبصَقَ الوزيرُ فى وجهه وقال : ياضَعيف العقلِ ، كيف أعطيكَ شيئاً جعلنى سيدك ؟ !

ثم دعكَ الخاتم ، فحضر خادمه ، فأمره أن يحملَ الملكَ ، ويرميَه فى الأرض التى رمى فيها نسيبَه ، فطار به سريعاً

وقال الملك وهو طائر به : يا مخلوق ربى ، وما ذا فعلتُ من ذنبٍ حتى تنفذَ فىَّ أمرَ هذا الوزير الخائن ؟

فقال : بهذا أمرنى سيدى ؛ ولا أستطيعُ أن أعصِىَ له أمراً ، ثم ألقاه بجوار نسيبه ، فسمعه يبكى ، فبكى معه ، وأخبره بما فعل الوزير به . فقال معروف : ذلك جناية وزيرك وشرابه ، الذى سقانيه على طعامك ، وقد كان عليك أن تأخُذَ منه حِذرَك .

فقال الملك : لا يَنفَعُ الآن ندمٌ ، فقال معروف ! فلنُسلِم الأمر إلى الله الذى لا يعجزه شئ فى السموات ولا فى الأرضِ وهو اللطيف الخبير .

خرج الوزيرُ من البستان ، وذهبَ إلى بيتِ الملكِ والولاية ، وجمع رؤساء العسكرِ ، والكبراء والولاة ، وأخبرهم بما فعلهُ بالملكِ ونسيبه ، وبما كان من أمر الخاتمِ الذى فى يده ، وأنذرهم إن لم يرضوا به ملكا ، أمر خادم الخاتم أن ينقلهم إلى حيثُ يموتونَ جوعاً وعطشاً .

فقالوا : لا تؤذِنا فى أنفسِنا وأموالنا ، فقد رضينا بكَ ملكا ، ولن نعصِى لك أمراً . وكان ذلك الاستسلامُ منهم قهراً ورهَباً .

وأرسل الوزير إلى بنتِ الملك أن تهيئ نفسَها لدخوله عليها الليلة ، فأرسلتْ إليه أن يُمهلها حتى تنقضى عدتُها ، لتكون له زوجةً شرعيةً — وكانت قد عرفت أمر الخاتم ، وخيانة الوزير ، وما فعله بأبيها وزوجها — فأرسل إليها : إنى لا أعرفُ عدة ، ولا زوجةً شرعية ، ولا أهتم لحلالٍ أو حرام ، فهيئى نفسَك ، فإنى حاضرٌ إليكِ الليلة لا محالة .

فأجابت : — وأسرَّتْ في نفسها أن تمكر به — مرحباً بك ، وأهلا وسهلا ، فشرحَ صدرُه ، لأنه كان يحبُّها ، ولم يستطع الزواجَ منها ، ثم أمرَ أن تُمدَّ الموائد ، ودعا الناسَ إليها ، وقال لهم : كلوا واشربوا ، فهذه وليمةُ الفرح والدخول ببنت الملك هذه الليلة .

فقال شيخ الإسلام : لا يحلُّ لكَ ذلكَ حتى تنقضيَ عدتُها ، وتُبرمَ عقدَ الزواج بينَك وبينها .

فقال الوزير : اسكتْ ، فإنِّي لا أعرفُ عدةً ولا عَقداً ، فسكتَ الشيخ خوفاً من شره ، وقال لمن بجانبه : ذلكَ رجلٌ لا دينَ له ، وكفانا الله شرَّه ، وعجَّلَ بانقضاء أيامه ، وردَّ الأمر إلى أهلِه .

دخَل الوزير على بنت الملك ، فاستقبلته مبتَسمة ضاحكة ، في أفخر حُلَلِها ، وأجملِ زينتها ، وأظهرتْ له من الحب والرضا ، بما فعله بأبيها وزوجها ما لم يكن يتوقعُه ، حتى إنها قالت : لو قتلتَ أبي وزوجي ، لكان ذلكَ أحسنَ عندي ، حتى أكون خالصةً لكَ ، مقصورة على محبتِكَ ، لا يشغلُني عنها شاغلٌ من قريبٍ أو بعيد .

فقال لها : اطمئني فإنِّي قاتلُهما ، وهما الآن في سبيل الفَناء ، وكان ذلك مكراً منْها واحتيالا ، لتحصلَ على الخاتم ، ثُمّ تبدّلُ بنقمتِه نعمَة ، وبسَطوته وفوْزه ذلاً وخيبَة ، ولما رأى حبَّها ورضاها ، راوَدَها عن نَفسِها ، وطلبَ أن يمسَّها ، فتباعدَت وبكتْ وقالت : ياحبيبي وسيدي كيف ترضَى أن تمسّني وهذا الرجُلُ ينظرُ إلينا ؟ ! فاغتاظ قائلا : وأينَ

هذا الرجلُ ؟ ! فقالت : إنه ينظرُ إلينا ؟ ! بعينيه من فصّ هذا الخاتم ، فهدأ وضَحِك قائلا : لا تحزنِى فهذا خادمُ الخاتم ، وهو تحت طاعتى .

فقالت : ولكنّى أخشى العفاريت ، وأفزعُ منها ، فانْزَعْهُ وارمِه بعيداً عنّى ، فنزَعَهُ من يدِه ، ووضَعَهُ على المِخدّة ، فأسرعتْ هى إليه وأخذته ، ثم صَفَعت الوزير على وَجهِه ، وضربتْهُ برِجلِها ضربة قاسيَة ، وصرختْ مناديةً جواريها وخدَمها فحضروا إليها مسرِعين ، وأمرتهم أن يمسكوهُ ويُحيطوا به ، ففعَلوا ، ثم دعكت الخاتَم ، فحضر أبو السعادات قائلا : لبيكِ ، لبيكِ يا سيدتى ، ماذا تطلبين ؟

فقالت : ألْقِ هذا المجرمَ الأثيمَ فى غيابةِ السجنِ مُقيدًا ، فرماه فى ظلماتِه مُصفّدًا ، ورجَع إليها سريعاً .

فقالت : هاتِ لى أبى وزوجى هذه الساعة .

فقال : يكونانِ بين يديكِ بعد لحظة ، وطارَ إليهما ، فوجدَهما غارقَيْن فى حسرةٍ وندمٍ وألمَ ، يشكوان إلى الله تعالى بثّهُما وحزنهما .

فقال لهما : جاءكما نَصرُ الله ورضوانه ، فقال : وكيف ذلك ؟ فقصّ عليهما قصة بنتِ الملكِ ، وما فعلتْه بوزيرِه . وبعدَ ساعة كانا عندها ، فأطعمتْهما وسقتْهما ، وقضوا تلك الليلة فى فرحةِ المقهورِ عَزَّ وانتصرْ .

وفى الصباحِ أشارت البنتُ على أبيها أن يذهب إلى ديوانِ ملكه ، وأن يجعلَ زوجَها كبيرَ وزرائِه ، ثم يُحضر وزيرَه الخائنَ من سجنِه ، ويقتلَه أشنع قتله ، عَلَى ملأٍ من الخاصة والعامة ، حتى ينكشف عن العساكر



والرعية ، ما حلّ بهم من غمةٍ وبليّة ، بسببِ المجرمِ وزيرِهِ ، الذى خانَ عهدَه ، ونكّل به وبزوج ابنتِه ، وأعلنَ للملأ أنه لا دينَ له ، ولا يعرفُ حلالا ولا حراماً ولا مِلّة ، وأصرّ على أن تكونَ صلتها به ، صلةَ أفرادِ الحيوانِ الذى لا دينَ له ولا شريعة .

وطلبَ أبوها الخاتَم منها فأبتْ وقالت : لنْ يكون فى يدكَ ، ولا فى يد زوجى ، ولكنْ يكونُ فى يدى . فأنا أحْرَصُ عليه منكما ، وأنا تحت أمركما ، أفعلُ بمعونة خادمه كلّ شىء ترغبانِ فيه ، فإذا متُّ فالخاتم لكما من بعدى ، وأنتما حينئذٍ وشأنكما فيه ، فرضيا بذلك واطمأنّا إليه .

وبينما قادةُ العسكر وكبراء الدولة جالسونَ فى الصباح يتململُون مما حَلّ عليكهم ، وبنسيبه وابنتِه ، ويتألمون من توليةِ هذا الوزيرِ الفاجرِ عليهم ، ويتوسلونَ إلى اللهِ أن ينجيَهم من شره ، وأن يضيعَ هذا الخاتمَ من يدِه ، حتى يُهِبّوا فى وجهِه ، ويحل به ما يستحقه من هوانٍ وذلة — بينما هم كذلك — إذ دخل عليهم الملكُ ونسيبُه ، فأسرعوا إليهما فرِحين ، والتفوا حولَهما مغتبطين ، حتى جلسَ الملِكُ على كرسيِّه فى ديوانِه ، وقص عليهم قِصتَه ، فشاع الخبر فى المدينة ، فهاجتْ فرحة ، ولبستْ ثياب الزينة ، ونشطت الحياة والحركة ، فى رجالِها ونسائِها ، وشبانِها وشيوخِها ، ثم أمرَ بإحضارِ الوزيرِ فقتله أشنع قتلة .

مات الوزيرُ ميتةً منكرة ، وشُيّع باللعناتِ الصارخة ، وأصبح معروفُ كَبير الوزراء ، واستقرت الأحوال ، وعَمت السكينة ، مدة خمس سنوات ، ثم مات الملكُ فى السنة التى تليها ، وخلفَهُ فى الملكِ معروفٌ

نسيبه ، وكانت بنتُ الملكِ زوجُه ، قد ولدتْ له غلاماً رائعاً فى جماله ، وبلغَ من العمرِ خمسا ، واهتمتْ بتربيته فيها تربيةً صالحة ، وكانت تتمنى أن تعيشَ طويلا ، حتى تراه رجلا كاملا ، ولكنّها مرضَت ، وأحستْ أنه مرضُ الموت ، فوصَّتْ زوجَها بولدها خيرًا ، وأن يحرصَ على الخاتم ويحفظَه من أن يقعَ فى يدِ غيره ، ونزعت الخاتَم من يدِها وأعطتْهُ إياه ، ولم يُمهلها المرضُ ، فماتتْ ثانِىَ يومٍ من وصيتِها ، وكانَ حزنُ زوجها عليها عظيما .

وذات ليلةٍ شعرَ الملكُ معروف وهو فى سريرِ نومِه ، أن شيئاً غريباً بجانبه ، فانتبه خائفاً مذعورًا وقال : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، ونظرَ إليه فوجدَه امرأة ممسوخة الصورة ، واسعةَ الفم ، طويلةَ الأنياب ، مُجعّدة الشعر ، محروقة الجبين والخدين !

فقال : من أنتِ أيتها المرأة ؟

فقالت : زوجتُكَ فاطمةُ العُرة ، فقال : ومتى جئتِ من مصر ؟ فقالت : جئت هذه الساعة ، وكيف عرفتِ أنى فى هذه المدينة ؟ ومن جاء بكِ إليها ؟

فقالت : بعد أن شكوتُكَ إلى القاضيين ، شكوتُك إلى الوالى ، فأرسلَ أبا طبقٍ فى طلبك فلم يجدِك ، وضاع مجهود الباحثين عنك سُدًى ، فعرفتُ أنكَ هربتَ من وَجهى ، وذهبتَ إلى مكانٍ لا أعرفُه ولا يعرفُه أحدٌ ينقُل إلىّ خبرَك ، وقد وقعتُ بعدكَ فى فقرٍ أليم ، وعشتُ على خدمةِ الناسِ تارةً ، وعلى الشحاذة تارةً أخرى ، وفى كلتا الحالتين لا أجدُ مِن

الطعام ما يشبعني ، فتذكرتُ نعمتي في جوارك وإساءتي إليك ، وندمتُ على ما فعلت ، وبكيتُ على فراقك بكاءً دونه بكاء الخنساء على صخر .

وفي يوم خرجتُ كعادتي أسألُ الناسَ طعاماً ، فلم يُعطِني أحدٌ شيئاً ، وكلما ذهبتُ إلى إنسانٍ أسترحمُه وأستجديه ، شتمني وزجرَني ، وتشاءم من شكلي وهيئتي ، وانقضى اليومُ ذاهبةً جائية ، ولم أحصلْ على شيءٍ آكلُه وأطعَمه ، وبتُّ جائعةً باكية ، نادبةً نعمتَك ، نادمةً على إساءتي إليكَ شاكيةً إلى الله عجزي وضعفي ، وجوعي وبؤسي .

وبينما أنا أبكي ، رأيتُ شخصاً أمامي ، يسألني عن بكائي ، فقلت : كانَ لي زوج كريم الخلق ، واسع الصبرِ ، يقوم بشأني ، فيطعمُني ويكسوني ، وقد فقدتُه ، ولا أعرفُ مكاناً له ، وذقتُ الهوانَ وذلَّ السؤال من بعدِه ، فقال : وما اسمُه ؟

فقلت : معروف الإسكافي ، الرجل التقيّ الصابرُ الكافي .

فقال إنه الآن ملكُ مدينةِ خيتان الختن ، وإن شئتِ حملتُكِ إليه في أقرب زمن ، فتوسلتُ إليه أن ينقلني إليك ، فطارَ بي في الجو حتى نزل في هذا القصر بي . وقال :

إذا دخلتِ هذه الحجرة ، وجدت زوجَكِ نائماً على سريره ، ولما دخلت رأيتُكَ نائماً على سريرك ، غارقاً في نومك وسُرورك وسَعدِك ، وما كنتُ أنتظرُ منكَ أن تفارقني وأنا زوجُك ، ولكن أحمد اللهَ الذي جمعنا وأنت في أسعد أيامك .

فقال لها : لم يكن في بالي أن فارقَك أبداً ، ولكنكِ أسأتِ وشكوتِ ،

فهربت كَرها ، وحكى قصته لها ، إلى أن أصبحَ ملكا ، وله غلامٌ من بنتِ الملكِ التي ماتتْ .

فقالت : لم يكن ما جَرى إلاّ قدَراً مقدوراً ، وأسألك باللهِ ألاّ تفرقَ بيني و بينَك ، واجعلني خادمة في بيتِك لأعيش في نعمتِك ، ولو على سبيلِ الإحْسانِ والصدَقة .

وما زالتْ ترجو في انكسار وذلّة حتى رقَّ لها قلبُه .

فقال : إن تبتِ إلى ربّك ، وأحسنتِ معاملتَك ، عشتِ في نعمةٍ واسعةٍ ، وإن أنتِ رجعت إلى طبعِك ، وجاءني شرٌ من ناحيتِك قتلتُك ، ولا أخاف منْ قاضٍ ولا سلطان ، فقد أصبحتُ لا أخشى إلا الله تعالى . وجميعُ الملوكِ يخشَوْنَ بأسِي وسَطوتي ، وإن مَعِي خاتماً إن دعكتُه حضَر خادمُه ، وقضَى لي جميعَ ما أطلبُه ، وسأسكنُكِ قصرًا يخدُمُكِ فيه عشرونَ جارية ، وإن أردتِ أن ترجعي إلى مصر أمرت خادمَ الخاتَم أن يحملَكِ إليها ، ويحملَ معك ما يكفيك من الزاد مدة حياتك ، فماذا تختارين ؟

فقالت : أَختارُ المعيشة في كنَفِكَ وجوارِك ، وقدْ تبتُ إلى الله تعالى ، ثم قبلتْ يده .

أمرَ معروفٌ أن تسكن في قصرٍ وحدها ، وأن يكونَ لها من الخدم مَن يكفيها ، وجعل ابنُه وقد بلغَ سبعَ سنين يتردّد عليها ، ولما شعرَ الولدُ أنها تكرهَه ، ولا تحبّ رؤيَته ، كرِهها ، وانقطع عن الذهاب إليها إلا قليلا .

وكان معروف قد زهد زوجته فاطمة العرة ، لأنها أصبحتْ عجوزاً

شمطاء ، ليس فيها مسحةٌ من محاسن النساء ، ولأن قلبَه كان قد أبغضها ، ومن العسير أن يتحولَ إلى محبتِها ، فالقلوبُ إذا تنافرَ ودُّها ، كانت كالزجاجةِ لا يجبرُ كسرُها .

كان معروف يُطعمُ زوجتَه فاطمة العرة ، ابتغاءَ وجه ربه ، معرضاً عنها ، هاجراً فراشها ، محباً للجوارى الحسان ، مشغولا بهن ، فغضبت فاطمة ، وتحركت الغيرة فى صدرها ، ووَسْوسَ إليها الشيطانُ أن تأخذَ منه الخاتم ثم تقتله ، وتنصب نفسَها ملكة ، فخرجتْ من قصرها ذات ليلة ، ودخلتْ قصر زوجها فى حذَر وخِفيَةٍ .

وكان معروف فى تلك الليلة راقداً مع جارية من جواريه ، وكان من عادته أن ينزع الخاتم من إصبعِهِ ، ويضعه على مخدته ، فإذا دخل الحمام أغلق أبوابَ القصرِ حتى لا يدخلَه أحد ، فإذا خرج من الحمام لبسَ الخاتمَ وفتح الأبواب ، ولا حرجَ بعد ذلك على من يدخلُه ، وكانت فاطمةُ العرةُ تعرف هذا كلَّه ، وذلك ما أطمعها فى الخاتم وسرقته ، وكان ابنُ زوجها وقتَ دخولها فى المرحاض يقضى حاجتَه ، فرآها مُسرعةً إلى حجرة أبيه .

فقال فى نفسِه : لأمرٍ مَا خَرجتْ هذه المرأةُ فى ذلك الليل ذاهبة إلى حجرة أبى ، إنى لأخشى أن تكونَ قد دبرتْ له مكيدةً تضرُّه ، وجرىَ وراءَها فى خِفية ، ومعهُ سيفهُ ، الذى كانَ لا ينفكُّ يتقلدُهُ ، فيقول له والدُه ماشاءَ الله ! ! سيفُك عظيمٌ ، ولكنك لا تخوضُ به غمراتِ القتال ، فيقول هو لأبيهِ : هذا سيفٌ سأقتلُ به من يَستحِقُّ القتلَ .

وقف ابنُ معروفٍ فى مكانٍ من قصرِ أبيه ، لا تراه فاطمةُ العرةُ



فيه ، يرقُبُ حركتها ، وجَعلتْ هى تبحثُ عن الخاتم قائلة :

أينَ الخاتم ؟! أينَ الخاتم ؟!

فلما سَمِع قولها عرفَ مرادَها ، فترصدَها حتى عثرت بالخاتم ، ثم همتْ أن تدعَكه ، فأسرعَ إليها بسيفِه ، وضربَها فى عُنقها ضربةً فصلتْ رأسَها عن جسمِها ، وكانت قد صرختْ صَرخةً عالية ، انتبه على أثرها والدُه ، فوجد امرأتَه فاطمة ، ملقاةً على الأرض مقتولة ، وابنُه أمامها شاهرٌ سَيفَه ، فسأله : ما هذا يا ولدى ؟

فقال : ألا تذكرُ أنى كلما سألتنى عن سيفى هذا قلتُ لك : إنى سأقتل به من يستحقُ القتل ؟! وها أنذا قد قطعتُ به عُنُق امرأة خائنةٍ تستحقُ الموت العاجِل ، وقصّ على أبيهِ قصتَها ، فجعلا يفتشانِ عن الخاتم حتى وجداه فى قبضةِ يدها ، فأخذه معروف وقال : أراحك اللهُ يا ولدى فى الدنيا والآخرة ، فقد أرحْتَنى من هذه المرأة الخبيثةِ الخائنة ، ثم أمرَ الملكُ خدمه أن ينقلوها إلى مكانٍ آخر ، وأن يقوموا بغسلها وتكفينها ، ولما أشرق الصباحُ دُفنتْ فى هذه المدينة ، وكأنها نقلتْ إليها لتموت وتدفن فيها ، وتلقى جزاءها على يد مَن أحسنَ إليها وأساءت إليه .

وأَصدَرَ معروفٌ أمرَه ، أن يُحضروا له الرجلَ الفلاح الذى أكرمَه فى حقله فلما حضر جَعله وزيرَه ، وأمينَ مشورتِه ، وتزوج ابنَته ، ثم زوج ابنه ، ولبثوا فى أرْغدِ عيش وأهنأ مسرّة ، حتى انتقلُوا إلى الدار الآخرَة ، وسبحان الحيّ القيوم الذى يحيي ويُميتُ ، بيدِه الملكُ وهُو على كلِّ شيء قدير .

رقم الإيداع ٣٤٤٦ / ١٩٩١ الترقيم الدولى ISBN 977-02-3238-6 ١٧٨ / ٩٠ / ١
طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

ألف ليلة وليلة

هذه طبعة جديدة من هذه المجموعة التى تنتمى إلى التراث الشعبى.. والتى نالت إهتمامًا عالميًا فى الشرق والغرب.. وترجمت إلى كل لغات العالم..

وتمتاز هذه الطبعة بحسن الصياغة التى تناسب عقول الشباب والناشئة.. وتخلو من الشوائب التى توجد فى طبعات كثيرة..

إنها واحدة من عيون التراث الذى تحرص دار المعارف على تقديمه إلى القارئ العزيز..

صدر منها:

١ - شهر زاد ودنيا زاد
٢ - السندباد البحرى
٣ - قمر الزمان
٤ - الصياد والعفريت
٥ - معروف الإسكافى
٦ - الأحدب والخياط
٧ - عبدالله البرى وعبدالله البحرى
٨ - أبوالحسن وجاريته تودد
٩ - الحصان المسحور
١٠ - على بن بكار وشمس النهار
١١ - على الزئبق ودليلة المحتالة
١٢ - علاء الدين والمصباح العجيب
١٣ - على بابا



دار المعارف

